البيئة في الإسلام

تاليف الدكتور
إبراهيم أوزدمير

للنشر  والتوزيع
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م



١٨ ش مصطفى كامل – البر الشرقي – بجوار بازار الجمهورية ومكتب بريد البر الشرقي – شبين الكوم – المنوفية

تليفون : ٠٠٢٠٤٨٢٥٢٧٩٩٥
فاكس: ٠٠٢٠٤٨٢٥٨١٠٢٣
محمول : ٠٠٢٠١٢٤٣٩١٧٤٢
٠٠٢٠١٢٦٩٩٤٧٠٧

BALANCIA
BUPLISHERS
Egypt

*Tel:*0020482527995
-Fax : 002029288129
Mob : 0020124391742
0020126994707
E-Mail :
anagmyy@yahoo.com
Web Location :
http://www. balancia.com

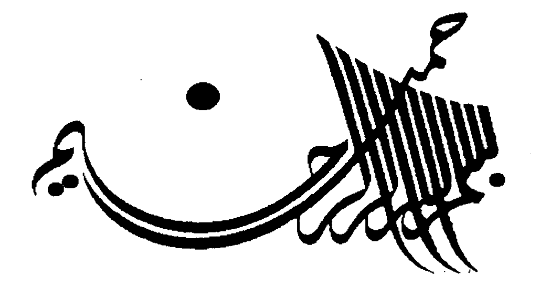
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٨/٢٨٤٧
I.S.B.N. : 977-6192-10-6

17.6X 25 cm .

© حقوق الطبع محفوظة ٢٠٠٨م. لايسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو الكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه . ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر .


بسم الله الرحمن الرحیم

تقديم

أ.د/ الصفصافى أحمد القطوري [1]

عرف الأتراك العثمانيون كيفية الحفاظ على البيئة منذ أمد مبكر، فقد اعتنقوا الإسلام دينًا واستوعبوا اللغة العربية حكامًا ورعية، وأسهموا مساهمة فعالة فى بناء وتشكيل عناصر الحضارة الإسلامية. فلقد قدر للدولة العثمانية من بين دول الترك أن تصبح دولة مترامية الأطراف، تمتد رقعتها الجغرافية لتحكم شعوبًا ومللًا ونِحلًا غير متجانسة، وأن تكون أطول دول الترك عمرًا وبقاءً.

إذ عمَّرت(٦٢٣) عامًا (٦٩٩-١٣٤٢هـ = ١٢٩٩- ١٩٢٣م) واختلف على عرشها أربعون حاكمًا، الثلاث الأول منهم بكوات، والباقون سلاطين.

ووليها منذ أيام السلطان ياووز سليم (١٤٧٠-١٥٢٦م) إلى انقراضها اثنان وثلاثون سلطانًا (خليفة)، وقد جمعوا فى أياديهم السلطتين الزمنية والروحية وتم الدعاء لهم على منابر العالم الإسلامي السني طوال (٤٠٦) عامًا.

لقد ورثت هذه الدولة حضارة السلاجقة وملك الإمبراطورية البيزنطية الشرقية ومؤسساتهم العلمية والحضارية جنبًا إلى جنب مع حضارة الدول التركية الإسلامية الأناضولية، واستفادت من نظم الإدارة عند المماليك والأيلخانيين، وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة.

لقد نبع من الأتراك العثمانيين فى عهود السلاطين العظام طائفة من مشاهير علماء المسلمين، أمثال ابن كمال باشا (١٤٦٨-١٥٣٣م) وأبو السعود أفندي (١٤٩٠- ١٥٧٥م) صاحب التفسير وسلطان المفسرين،ولقد احتلت اللغة العربية إلى جانب الدين الإسلامى المكانة الأولى فى نفوس الأتراك، وكانت

---

(١) أستاذ متفرغ بكلية الآداب – جامعة عين شمس- القاهرة- مصر.

تدرس بها كل العلوم الدينية والتطبيقية، بل كان العالِم التركي يضع مؤلفاته باللغة العربية أولًا وإذا ما أراد لها الانتشار بين بني جنسه ترجمها إلى التركية.

لقد كانت السمة الدينية هى السمة العامة التى اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية، وكان للهيئة الدينية وضع معترف به، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم السلطة الدينية ونشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المحاربة وإثارة عاطفتهم الدينية وحميتهم القتالية وصولًا إلى التعبئة الروحية المعنوية قبل خوض المعارك، واحتفظ الحكام منذ سليم الأول فى سراي الحكم بالأمانات المقدسة، وتلقب بعضهم بخادم الحرمين الشريفين والبعض الآخر بخليفة المسلمين. واعتمدوا المذهب الحنفي مذهبًا رسميًا للدولة تسير وفق أحكامه.

والتزمت الدولة التزامًا ملزمًا بالإشراف الفعلي على الحج وقوافله واعتبرت ذلك واجبًا يقع على عاتقها، فسيرت القوافل وحفرت الآبار وأقامت الحصون والمخافر والمطاعم والحانات.

فى مناخ كهذا، كان لابد أن يكون لبيئة نصيبها الأوفر من الاهتمام والعناية بكل عناصرها للحفاظ عليها وتنميتها حفاظًا على صحة الإنسان والحيوانات وتنمية للتذوق الجمالى سواء أكان سمعيًا أو بصريًا. سعت إلى تعبيد الطرق ونشر الخضرة والخضار انطلاقًا من المفاهيم والمآلات القرآنية وتفسيرًا حميدًا للسنة النبوية. أقامت إلى جانب دور العبادة العديد من المؤسسات التعليمية والتربوية والزوايا والتكايا حفاظا على الجانب المعنوى للإنسان.كما أقامت مضامير سباق الخيل وساحات الرياضة وسعت إلى نشر الفروسية والمصارعة و الملاعب والحمامات العامة وعممتها جنبًا إلى جنب مع دور الإيواء والأوقاف والعمارات الخيرية حفاظًا على الإنسان. عالجت بالموسيقى وبالطرب وشاع الشعر والغناء.. كان حب الشعر والغناء يمتد إلى عناصر

الطبيعة كما امتد إلى البشر... لقد شمل الحب الطبيعة والنجوم والنباتات والزهور والبلابل وجميع الكائنات وسعى الإنسان العثماني إلى نقل حبه بكل قدراته إلى الآخرين من حوله.

الكتاب الذى بيد أيدينا "**البيئة في الإسلام**" لمؤلفه الدكتور **إبراهيم أوزدمير** هو محاولة محمودة لإلقاء الضوء على مفهوم البيئة وكيفية الحفاظ عليها وتعميمها ليستفيد ويستمتع بها الإنسان ومعه كافة الكائنات، فى المبحث الأول يقدم الكاتب الإسلامى الحصيف تعريفًا لمصطلح البيئة التى جعلها "**أمانة الله**" وجعل علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمجتمع علاقة متداخلة،

وخصص الكاتب المبحث الأول حول ذكر عناصر البيئة فى القرآن الكريم مدعمًا كلامه بنصوص الآيات القرآنية الشريفة وكيفية تصور البيئة فى القرآن وعلم البيئة من خلق للكون وطهارة الماء كمصدر للحياة معددًا مصادره من سحب وأمطار وبحار ومحيطات وصواعق وبرق ذاكرًا الجبال والأنعام بكل أنواعها وفوائدها وكيفية الاستفادة منها والطير وكيف أنها أمم تسبح الله بلغاتها وأنها تسعى من الصباح الباكر لتحصل رزقها ورعاية صغارها.

وبين المؤلف من خلال الآيات الكريمة كيف أن هذه المخلوقات جميعًا مسخرة للإنسان وهى أمانة لديه وأن الإسلام لا يمانع ولا يحرم الاستفادة من الطبيعة التى هى نعم الله للإنسان ولكن بنفس القدر يحرم الإسراف ويكرهه إلى النفس البشرية.

كما خصص المبحث الثاني لتبيان مفهوم **البيئة في المجتمع العثماني** وانتقل إلى كيفية تفسير الإنسان العثماني لهذا المفهوم، وكيف أنه جعل عمارته تجمع بين مسكنه وأعشاش الطيور وحظائر الماشية.

ثم ينتقل المؤلف إلى الإطار النظري والرؤية الإسلامية الشاملة للعالم معتمدًا فى ذلك على القرآن والسنة باعتبارهما مصدر القيم الإسلامية مبرزًا

التطبيق الفعلى للوعى البيئي مجسدًا ذلك فى أوقاف السلاطين ومنشآتهم المعمارية وتكليفاتهم المحددة للنظافة ومعالجة المرضى بصرف النظر عن الجنس أو المعتقد الدينى وكفالة أسر الشهداء وقدامى المحاربين والمسنين والعجزة.

ونشر الساحات الخضراء ومنع قطع الأشجار بل الحض على غرسها. وأثبتت قرارات المحاكم الشرعية حقوقًا للحيوان والاعتناء به وعدم أذيته ونظافته وعلاجه بشكل يتوازى مع الاهتمام بأماكن العبادة والشوارع العامة والأزقة.

عرج المؤلف كذلك على انطباعات الرحالة الغربيين مستشهدًا بمدوناتهم التى سجلوها تحت تأثير ما شاهدوه من اهتمام وتعميم للمنشآت التى تخدم كافة أجناس البشر وأنواع الطيور والهوام والبهائم.

ولم يشأ المفكر الإسلامى والباحث المدقق الدكتور إبراهيم أوزدمير إلا أن يستعين بفكر وفلسفة علماء الدين الذين سبقوه فى هذا الصدد. فعرض علينا- تدعيما لما ذهب إليه في المبحث الثالث - **مفهوم البيئة عند بديع الزمان سعيد النورسى** وطريقة إجابته على الأسئلة المطروحة حول البيئة وقضاياها الحياتية.

واستعرض الكاتب حياة المفكر و اعتبرها تنبض بالحساسية إزاء عناصر البيئة المحيطة بالإنسان والتى خلقها الله من أجل أكرم مخلوقاته وهو الإنسان. كما سرد علينا الكيفية التى غاص بها الفيلسوف فى أعماق البعد الميتافيزيقى للكائنات. وكيف أنها جميعًا تسجد لخالقها عبادة وتقديرًا وتسبيحًا.

وقد أبرز فكر الشيخ النورسى حول معنى الطبيعة بمفهومها الحديث والعلاقة الوشيجة بين الإنسان ومفردات الطبيعة المتجسدة فى سائر الكائنات.

وركز على أن الطهر والطهارة والنظافة قاعدة كونية. وسنجد بين دفتى هذا الكتاب، ذلك الحوار الذى جرى مع المفكر البيئى الدكتور إبراهيم أوزدمير لنتكشف فيه آراءه حول البيئة المعاشة على النطاق اليومى. وقد أجرى هذا الحوار آيفر بالابان. وقد حاول المحاور أن يغوض وراء أفكار المفكر البيئى. وعندما سأله عن البيئة استشهد بأبيات من شعر مولانا جلال الدين الرومى حيث قال:

"الموسيقى ليل نهار..

صوت ناي ساكن وآخر وضاء..

إذا ما انتهت الموسيقى انتهت الحياة.."

فالموسيقى المستوحاة من الطبيعة والمعبرة عنها هى جوهر الحياة. وحفيف الشجر وخرير الماء وهديل الحمام وكل عناصر الطبيعة المذكورة فى سورة الرحمن ما هى إلا آيات تذكر بنعم الله التى خلقها للإنسان.

يختم الباحث حواره بالدعوة إلى النظر إلى الكائنات بمفهومها الشامل، والسعي لإدراك المعاني والقيم المعنوية التى توفرها تلك الكائنات حتى يمكن استثارة الوعي البيئي وتقويته لدى الإنسان.



الأستاذ الدكتور

الصفصافي أحمد القطوري

أرض الجولف - م. نصر - القاهرة

البيئـــة

في القرآن الكريم



مدخل

البيئة هي إحدى القضايا وربما أهمها التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث، ويرجع ذلك إلى أن هذه القضية لا تهدد وجود الإنسان فحسب، بل تهدد حق حياة الأجيال القادمة في مناخ صحي، وبصفتها تلك تظهر أمامنا كقضية عالمية. والإنسان الحديث الذي اطلع على اكتشافات مذهلة في مجال العلم والتكنولوجيا، يبدو مع الأسف أنه لم يستطع التعايش مع الطبيعة بشكل متوازن، فالإنسان الذي يجهل نفسه والطبيعة، أدرك حصوله على الطبيعة وامتلاكه لها كشيء واجب. وأنه جزء من الطبيعة. ولذلك استطاع أن يعي أنه يجب المعايشة في توافق مع الطبيعة على أنهما وحدة واحدة لا تتجزأ.

وعندما نذكر البيئة، فإننا نفهم كل الظروف الطبيعية التي نعيش فيها مع الكائنات الأخرى. فكما أن الإنسان يشكل بيئته: منزله وحديقته وعربته والهواء الذي يستنشقه والماء التي يشربه والمدينة التي يعيش فيها والناس الذين يعيش معهم؛ فإن الغابات والجبال والطرق والأنهار والبحيرات والبحار التي يقتسمها كل أفراد المجتمع، هي الأخرى تشكل بيئتنا. وينبئ القرآن أن الله هو الذي يحيط ببيئتنا النهائية. لأنه ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

وعندما نقول قضايا البيئة، فإننا نعي فساد المناخ في عالم الطبيعة الذي يحيط بنا، وانقراض أنواع الحيوانات، والاستهلاك الفائض، وتلوث الطبيعة علاوة على التلوث الاجتماعي في البيئة: الفقر، الجوع، التشرد، قضية الهجرة، الشعوبية، القهر، القمع، الأطفال المشردون في الشوارع، إدمان المخدرات والكحوليات، وغيرها من القضايا. وعندما يُنظر إلى أساس تلك المشكلات، يظهر أن غالبيتها العظمي ذات مصدر إنساني.

وانطلاقا من هذه النقطة، يكتب ويفكر كثير من المسلمين﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] ونفهم هذه الآية عند ربطها بقضايا البيئة. لأنه من المعلوم أن أكثر ما يفسد الميزان الإلهي في الطبيعة، هو الاستهلاك الفائض والإسراف وتخريب المصادر الطبيعية بشكل لا يمكن تجديده.

إن الأديان الأساسية (السماوية)، ومجموعة العقائد، والتقاليد الفلسفية الموجودة في الدنيا، تسعي للحصول على علاقة بين الإنسان والبيئة في هذا الترابط، وإعادة وضعه في شكل جديد[1].

ولما كانت الطبيعة بالنسبة للعرب قبل الإسلام هي الوجود " بلا مفهوم أو روح"، فاعتبارًا من أول آيات القرآن الكريم، قد تم تقديم لوحة جذابة للكون؛ تعكس قدرة الخالق، وعلمه، وإرادته، وجلاله، وجماله. فكل شيء في هذا الكون له معني،وآية منه تشير إليه، وهو شهيد عليه.﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]

ويمكن إيجاد أجمل تعبير عن هذا في أشعار يونس أمره الذي عاش في القرن الثالث عشر، فهو من منطلق عشق الكون، يحب جميع المخلوقات، لأنها خُلقت وتذكرنا بالخالق.

كما أنه يري الاثنين وسبعين ملة كأنهم إخوة.

---

(١) انظر:
Fern, Richard L., Nature, God, and Humanity: Envisioning Ethics of Nature, Cambridge: Cambridge University Press, 2002; Foltz, Richard, Worldviews, Religion and the Environment, Belmont: Wardsworth, 2003

تصور البيئة في القرآن:

عند تأصيل المبادئ الكونية، فإننا نجد أن الإسلام هو الدين الذي توجد أسسه ومبادئه مدونة ومحفوظة في مرجع (كتاب) نصي موثق أكثر من الأديان الأخرى[١]. وكما هو معروف فإن القرآن أنزل مجزئًا "لمدة ثلاثة وعشرين عاما[٢]؛ أحيانًا على شكل سورة كاملة، وأحيانًا آية واحدة، وأحيانا أخري عدة آيات. وكان الرسول ﷺ يعلم من حوله من الصحابة كل آية توحي إليه بقراءتها. وهم أيضًا يقدمون إلى غيرهم ما تعلموه وحفظوه.

والقرآن الكريم "هو غذاء أرواح المسلمين، ومبدأ أخلاقهم، وأساس عباداتهم، ووسيلة تبليغهم، وذكرهم اليومي وتاريخهم. وبكلمة واحدة؛ هو المبدأ الأساسي الذي ينظم جميع نواحي الحياة"[٣].

وعلى مدى ثلاثة وعشرين عامًا وهي المدة التي أُنزل فيها القرآن، قد غيّر الفكر العالمي لمن يخاطبهم، وشكّل فكرًا عالميًا جديدًا أساسه التوحيد. وطبقًا لمصطلحات القرآن، فالطبيعة التي كانت بالنسبة للعرب، تبدو كشيء مهمل بلا فائدة، تم تعريفها من جديد بأنها آيات وجود الله[٤]. "إن القرآن لم يغير فقط كيفية معتقدات العرب عن الله، بل غير كل نظم التفكير. فالتصور الإسلامي لله، كان له تأثير عميق في كل البناء الفكري عن الكون (...) فكل القيم كانت تنقل إلى المجال الذي نظمت فيه من جديد. وجميع عناصر الكون بلا استثناء كانت تؤخذ من أماكنها القديمة وتحل في هذا المكان الجديد[٥].

---

(١) Hamidullah, Prof. Dr. Mhuamed, Islam Peygamberi, ter. Salih Tug. (Istanbul: Irfan Yayinlari, 1980).4.

(٢) Draz, Abdullah, Kur'an'a Giris, ter. Salih Akdemir, (Ankara: Kitabiyat, 2000),30.

(٣) Draw, 30-31

(٤) Izutsu, Toshinhiko, Kur'an'da Allah ve Insan, ter, Suleyman *, (Ankara: Ye Ufuklar 1975),18.

(٥) Izutsu, المرجع السابق، ١٧- ١٨.

وبعد ذلك كان الإسلام يشكل بعدا أخلاقيًا بين العالم. وبعبارة أخري، "فإن أحد الشروط الواجبة للوصول إلى الإيمان الحقيقي تبعا لتعاليم القرآن، هو التأمل في وجود الطبيعة حولنا، ليس كشيء بسيط، إنما كشواهد لنعمة الله على الإنسان[1].

إن أول أمر خطابي للقرآن على الرسول ﷺ كان " اقرأ". وهذه كانت دعوة إلى القراءة في جوانبها المتعددة، وليس قراءة نصٍ مكتوب، أو شيء محفوظ. فالعالم الذي كان بلا روح أو مفهوم طبقًا لتصور المجتمع الجاهلي، سيكتسب مفهومًا جديدًا مع هذه القراءة. لأنه وفقًا لتعاليم الإسلام كل شيء باكتسابه مفهومًا جديدًا، يذكر الله ويكون دليلًا يبينه. وهذه الآية كافية لإظهار التغير الجذري الذي أحدثه القرآن في مفهوم العالم. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] و[الجمعة: ١] و[الإسراء: ٤٤].

ففي هذه الآية، تتحرك كل هذه الذرات التي في هذا الكون الفسيح، إلى الله بحالة روحية فائضة تبعده عن كل نقص. مثل القلب الذي يذكر الله، ويرتعد بعظمته وعقيدته. كأن الوجود كله يسبح باسمه في نفس واحدة بسعادة وفرح. ويسمو في عظمة إلى الخالق الواحد العلى العظيم. وعندما يستحضر القلب هذه الحادثة في ذهنه، سيري أنها لوحة فنية بلا نظير. كل الأحجار والأصداف، كل البذور والأوراق، كل الأزهار والثمار، كل النباتات والأشجار، كل الحشرات والزواحف، كل الإنسان والحيوان، كل الكائنات الحية على وجه الأرض، كل الكائنات التي تسبح في الماء، كل الكائنات التي تحلق في الفضاء، وإلى جانب هذا، ساكنو السماء... نعم كل هذه المخلوقات، تري الله منزهًا عن صفات النقص، وتتجه إليه لعظمته.

---

(١) Izutsu, المرجع السابق ٢٤.

وعند البحث عن الروح، وعند الاستماع إلى المخلوقات التي تقف مكانها ساكنة، أو التي تتحرك عند تنظيفها، سيري أنهم يحيون بروح واحدة، ويتجهون إلى تسبيح الله، وأرواحهم على استعداد للتواصل بالعالم العلوي. ومن أسرار هذه المخلوقات أنها تدرك الحقائق التي لا يستطيع الإنسان الغافل إدراكها ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

بلا شك أن المفهوم الرئيسي الذي يعبر عن أساس الإسلام هو التوحيد، أي مفهوم وحدة الله. وتتجلي وحدة الله في وحدة الإنسانية والطبيعة. وما يجذب الانتباه هنا، أن الله الذي يقدمه القرآن ليس إلهًا يقطع علاقته بالعالم. فهذا الرأي المتداول بالنسبة للفلاسفة، غير مقبول بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، فالله الذي يقدمه القرآن، ليس في الاحتمالات. فهو يبين نفسه، ويجعلنا نشعر بوجوده مع كل شيء في هذا العالم. إن زقزقة الطيور، تفتح الزهور، هبوب الرياح، باختصار،كل عالم الوجود هو انعكاس لقدرته، وعلمه، وجلاله، وجماله. فالله ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ﴾ [المجادلة: ٧] وأيضًا﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [هود: ٩٢] أو في هذا الإطار يجب ذكر آيات﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴾ [النساء:١٢٦] و﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ [فصلت: ٥٤]ويتضح المفهوم القرآني لله في قول فرعون﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ فيجيبه قائلًا﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]

كما أن فهم المسلم واستيعابه لله الرحمن الرحيم بهذا الشكل، يذكره أنه ليس وحيدا ومنفردا في هذا العالم. كما يجعله لا ينسي، ولو لحظة واحدة، أن جميع المخلوقات الأخرى مسلمة مثله. فالقرآن الذي قدم كل مخلوق في الكون

ليكون دليلا على وجود الله، يقدمه أيضًا كلطف وإحسان الله. ويجب على الإنسان أن يشكر الله على هذه الآيات والنعم. إلا أن أداء هذا الشكر مرتبط بـ "حسن فهم وتقدير آيات الله"(١).

ويوجد هنالك أبعاد لكل هذا الشكر وتلك العبودية، تحت دعوة القرآن إلى أخذ العبرة والتأمل والتفكر في الآيات التي في الآفاق والأنفس. وإذا نظرنا من ناحية موضوعنا، يبدو العالم الذي حولنا كآية لله. كما أن التفكير الجيد في هذه الآيات، والشكر لله بتفهم الدقائق الموجودة بها، وتنظيم العلاقات مع هذه النعم، يظهر أمامنا كقضية للعبودية.

علم البيئة في القرآن

أ- خلق الكون

أول إثبات يربط القرآن بالكون، هو حقيقة أنه خلق من عدم. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] إلا أن هذا الخلق لم يكن وليد الصدفة، بل تحقق في نظام ورتم وتكامل، نتيجة علم الخالق، وقدرته وإرادته.

ولله الخلق ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] ليس مرة واحدة، بل هو مستمر (٢) وهو الذي خلق السماوات السبع في توافق تام مع بعضهم البعض. ولا يمكنك أن تري أي خلل في خلق الرحمن. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

---

(١) Izutsu, Kur'an' da Allah ve Insan, 219.

(٢) Izustu, T, Islam Düşüncesi Üzerine Mekaleler, ter. Dr. Ramazn Ertürk, Anka, Istanbul, 2001, s. 158, 169-175.

﴿طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ويرى Izutsu أن مفهوم الخلق، هو أحد المفاهيم الأساسية في الفكر الإسلامي[١].

وعندما يعلن القرآن أن (الشمس والقمر يتحركان بحسبان، والنباتات والأشجار تسجدان، وأن الله خلق السماء ووضع الميزان، فاحذر خلل الميزان، واعدل في الميزان، ولا تنقصه)؛ فهذا يشد الانتباه إلى التوازن الذي في الطبيعة. وبعد ذلك يبين النتيجة التي تجذبنا إلى هذا التوازن والحقوق والواجبات في الحياة الاجتماعية. ويعلن أن هذه الحقوق والواجبات والتوازن هي القواعد الكونية التي يجب علينا اتباعها.

وعندما يتحدث القرآن عن الكون، يعلن أنه مسلم. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]بمعني أن كل عالم الوجود، أسلم إلى إرادة الله بشكل مطلق. فكل الوجود الذي نسميه طبيعة، حتى الكائنات غير الحية، كأنها جنود تسمع وتطيع، وتنفذ واجباتها الفطرية بالتصديق، وتنحني للخالق وأوامر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٧] أما المتوقع من المسلم، فهو التسليم بإرادته الحرة، إلى الإرادة الإلهية.

وبعد ذلك يصبح كل شيء في الكون صديقًا له. ويدخل في جو التوافق والتناغم حتى مع الكائنات غير الحية. ويشعر أن كل الكائنات تقابله باحترام، وأنها آثار الإله العظيم، وأن كل شيء يتعامل معه كأنه صديق مؤنس. وكما هو في نظم التفكير المادي، فإن كل شيء لا يعكس تأثير الوحشة والعداوة، التي يجب أن يتنازعها مع نفسه[٢]

(١) Izutsu, T. Islam Düşüncesi Üzerine Mekaleler , 176-177.

(٢) Ulutürk Veli, Kur'an Kerim Allah'I Nasil Tantiyor? Çağlayan A.Ş Izmir, 1985, 63.

إن الطبيعة ليست كائنًا غير حي، بل هي كائن حي فاهم. فالله يتحدث مع الكائنات ويخاطبهم، كأنهم كائنات حية في عالم الوجود، فيقول ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]

والمؤمن الذي يقرأ القرآن، يدرك أن كل شيء موجود في الكون، يسبح الله. كل المخلوقات الموجودة في السماوات والأرض، تسبحه وتقدسه وتعظمه. وكل ما في عالم الوجود يشهد بعظمته ووحدانيته[١]. السماء بزرقتها، الحقول بخضرتها، الحدائق بجمالها، الأشجار بحفيفها، الماء بخريرها، الطيور بأنغامها، الشمس بشروقها وغروبها، السحاب بإنزاله للمطر، نعم، كل هذا يسبح الله، ويشهد بوحدانيته. لكنكم لا تفقهون تسبيحهم؛ لأنهم لا يسبحون بلغتكم[٢]. والآن يمكننا النظر من قريب إلى تعبيرات القرآن التي تهتم بالعالم من حولنا.

ب -الماء كمصدر الحياة

يري القرآن الماء على أنها مصدر الحياة. فقد خلق الله من الماء كل شيء حي﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وبعض هذه الأحياء يمشي على بطنه، وبعضها يمشي على رجلين. وبعضها يمشي على أربع. والله يخلق ما يشاء. لأنه على كل شيء قدير. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨- ٤٩] وفي تفسير آية "﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] يؤكد المفسر حمدي يازر (أنزلنا المطر من السماء بقياس

---

(١) سورة الإسراء، Kutub Seyyid, fi Zilali'l Kur'an (Kuar'an'in Yayinlari, Istanbul, 1979, c. 9,328-329.

(٢) Es- Sabuni Muhammed Ali, Safvetul Tefasir (Tefsirlerin Özü) ter. S. Gümüş –N. . Yılmaz, Yeni Şafak, Istanbul , 1995, c. 3., 380.

وقدر معلوم. والماء الذي هو أهم ضرورات الإنسان الحياتية منذ أن كان طينًا، معلوم أنه نعمة في حد ذاته، كما أنه سبب ظهور كثير من النعم. إلا أنه بالرغم من ذلك، فهو محدود بقياس تبعا لكل احتياج. وزيادته كالفيضان تكون دمارًا وهلاكًا.ولهذا السبب يمطر المطر بمقدار مختلف طبقًا للاحتياجات المختلفة.

حيث إن زيادته وقدره ليس في شكل أو مستوي أو نظام عادي، بل هو في نظام متشابه إلى حد ما في الشكل، يدل على تصرف طبقًا لعلم الله وإرادته. وقد وضع قيد "بقدر" خصوصًا للإفادة عن النقطة التي تعبر عن العناية الإلهية. وقد عُلم فيما بعد في علم الكيمياء، أن الماء ليس مادة بسيطة واحدة، بل مادة متحدة من عنصرين رئيسين هما:

الأكسجين والهيدروجين. أي أن تكوين الماء لم يكن شيئًا طبيعيًا، بل هو صنع الخالق الذي أثر عليه من الخارج. ومن هنا فإن الماء هو نتيجة وثمرة التأثير السماوي) [١].

وكما هو مؤكد أن الماء الذي في حياتنا اليومية ليس مادة واحدة، ففي مصطلحات القرآن مفهوم له أهميته يذكرنا بأن المنهج الذي يجب علينا نتقدم به، والسلوك الذي علينا التحلي به، هو الشكر لا الكفر. ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]. ويتأكد نفس مضمون الشكر- النعمة في آية ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢] [٢].

---

(١) .Yazır Elmalılı M. Hamdı, Hak Dini Kur'an Dili, Sadeleştirenle: I. karacam, E. Isik, N. Bolelli, A. Yücel, Feza Gazetecilik, A.Ş;. Istanbul, 519.

(٢) وانظر أيضًا: سورة الرحمن، (١٩، ٢٢، ٢٣)؛ سورة الواقعة، (٦٨-٧٠)؛ وسورة الملك (٣٠)؛ وسورة النمل، (٧٣)؛ وسورة عبس، (٢٤-٢٥).

ويشير القرآن إلى الحقيقة التي يمكن أن يعتبر بها أولو العقول:﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] يؤكد القرآن باستمرار وبشكل واضح جدًا أنه﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]أما حكمة هذا، ففي آية أخرى﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥]

إن الله الذي أنزل من السماء ماء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨]

ج -البحار والمحيطات

إن الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢] وفي ظلمات البر والبحر﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤] و﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [الإسراء: ٦٦]وفي آية ينبهنا الله إلى الفائدة التي يضمنها البحار للإنسان﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

د -السحب والمطر

عندما بدأ الرسول ﷺ في دعوة أهل مكة إلى الإسلام، ذكروا له المعجزات التي منحت لسيدنا عيسي وسيدنا موسي عليهما السلام .وطلبوا أن تكون قمة الصفا ذهبًا كمعجزة له. ومقابل ذلك تم التعبير مرة أخري، وبشكل واضح، أن أكبر معجزات الله ودوامها، هي العالم الذي حولنا، ويحيط بنا. كما توجد دلائل لا حصر لها تبين وجود الله ووحدانيته:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وكذلك الأمر فإنه هو الذي أرسل الرياح بشيرًا بالمطر ليكون رحمة﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧][1].

وعندما يستمر القرآن في الإرسال على الأحداث والأشياء، فهو عادة يتحدث مع محدثه ويوجهه. وربما يكون هذا هو سبب استمرار وقوة تأثير القرآن بهذا القدر. فمثلًا بعد أن يعلن أن الله حكم السماوات والأرض، يوجه السؤال لمحدثه:﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٤٢] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣ – ٤٤] وفي آية أخري يوضح ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

(١) وانظر أيضا: سورة الحج، (٥-٦)؛ سورة الروم، (١٩-٥٠)؛ سورة فاطر، (٩)؛ سورة الشعراء، (٢٨) .

وعند الحديث عن المطر في القرآن، يتم النظر إلى الكائنات برؤية كلية، ويعرض التوازن البيئي، يتأكد أن العالم كأنه منزل:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢].

وعند تفسير آية ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ يقول قطب:" لو لم يكن للدنيا هذا التوافق، وهذا الانسجام؛ لما استطاع الإنسان أن يعيش على هذا الكوكب بشكل سهل وآمن. ولو لم توجد ذرة واحدة من عناصر الحياة التي اجتمعت في هذا الفلك، لما أمكن للإنسان أن يتواجد في عدم وجود مناخ مناسب، يضمن معيشته. ولو كان قد نقص أي مركب من مركبات الهواء الجوي الذي يحيط ببيئتنا، ولو بجزء ضئيل عن النسبة المقررة، فإن عملية الشهيق والزفير كانت ستصعب على الإنسان إلى أقصى درجة، حتى مع وجود ما يواصل به حياته.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾

عند النظر إلى السماء، تبدو خصائص البناء السليمة المتوافقة. فالسماء تساعد في وجود حياة على هذا الكوكب، وذلك بحرارتها، وضوئها، وقوة جاذبيتها لنجومها وكواكبها، وببنائها المتناسب.

وبعلاقاتها الأخرى بينها وبين الأرض. ولذلك، فبينما تتأكد قوة الخالق، وعطايا واهب الرزق التي لا حدود لها، وعندما يتضح وجوب عبودية المخلوقات لخالقها، يكون الحديث عن هذا العالم في محله إلى أقصى درجة.

فالأرض التي هي جزء من هذا الكون، مهدت للإنسان، والسماء وجهها الآخر، أقيمت وفقًا لنظام معين، ولرزق الكائنات الحية؛ تم التزود بالماء الذي يضمن نمو الأنواع المختلفة. فواهب كل هذا هو الله الخالق الأحد.

هـ -الصاعقة والبرق

كما هو في القرآن، فإن الرعد والصواعق ليست ظواهر طبيعية تحدث من جراء نفسها أو من فراغ. فهي مخلوقات من الله، تذكر الله وتسبيحه، طبقًا لمفهوم القرآن. فمثلًا باعتبار أن الملائكة تسمع الله، فعند التعبير عن "يسبحه ويقدسه". يذكر في هذه الآية في نفس المضمون﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الرعد: ١٣] وهكذا فكما اتضح أن الهدف الأساسي للكون كله من الرعد حتى الملائكة هو معرفة خالقها وذكره، يتضح كذلك إدراك الطبيعة المليئة بالكائنات. وبينما الوضع هكذا، فالكافرون﴿ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

ويفسر يازر هذه الآية فيقول:" الرعد الذي يكون مع البرق ويسمع بعده، ينفجر في الفضاء كأنما ينزع القلوب من مكانها. هذا الانشقاق والصوت الرهيب الذي ينتشر من أفق إلى أفق حتى يشمل الأرض والسماء، هو الصوت الذي يسبح ويعظم شأن ألوهية الله تعالى ، معلنا نعمته ورحمته وعظمته وكبرياءه. ويصبح في العالم أجمع بالمعني المقصود بتسبيحه. أو ذكر من يسمعه بهذا المعنى"[1].

وبالبحث من القرآن عن تكوين السحب والمطر، يتضح أن الطبيعة كائن روحي ومتكامل. ومن جانب آخر فقد أظهر القرآن مفهوم الله بشكل واضح ودقيق في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣].

(١) Yazir المرجع السابق، ج٥، ص١٣١.

و -الجبال

خلق الله الكائنات ولم يتركها لحالها. فكما أنه خالق الكائنات، فهو أيضا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] و ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. وفي آية أخري ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢٠ – ٢١]. وكما أن الله هو الذي خلق السماوات بغير عمد، فهو أيضا الذي أرسي الجبال على الأرض لعدم الإضرار بالإنسان ومد الأرض وخلق فيها مختلف الكائنات الحية. كما خلق في الجبال ملاذا ومأوي للإنسان. ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ والهدف من كل هذا ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠- ٨١][١]

وفي آية أخري ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] ثم يبين أن كل هذا ليكون درسا وعبرة لكل عبد يتجه إلى الله ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] [٢]. ولم تنته وظيفة الجبال عند هذا الحد الذي أشرنا إليه.

فالجبال والطيور تسبح الله مع النبي داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]

وعند النظر بهدف رؤية طبيعية، نواجه بمفهوم طبيعة روحية ومتكاملة تماما[٣] ففي أثناء تسبيحات النبي داود عليه السلام يصل إلى درجة القرب إلى الله

---

(١) وانظر سورة لقمان (١٠).

(٢) وانظر أيضا سورة النبأ (٦–٧)؛ سورة النازعات (٣٢)؛ سورة الغاشية (١٠، ١٩).

(٣) Yazir المرجع السابق، ج٦٠، ص٣٥٣-٣٥٤.

والبعد عن نفسه حتى أن كل الحجب (الحواجز) تزول بينه وبين الكون، وتستكمل خواصه بخصائص الكون وتتحد تسبيحاته بتسبيحات الكون، ونتيجة هذا؛ تكرر الطيور والجبال تسابيحه.

وذلك لأنه لم يعد هناك شيء مانع بين وجوده ووجود الكون. فعندما تقيم كل الموجودات علاقة مشتركة مع الله العلى العظيم، تزول الفوارق بين كل الكائنات حتى التي بين الكائنات الحية وغير الحية. فكل الموجودات تشترك في خاصية واحدة يقدمها الله العظيم وبلا واسطة.

هذه الخاصية كانت فيما قبل مختفية تحت حجب التشابه والاختلاف. لكن يبدو أن هذه الخاصية في التسبيحات المتجهة إلى الله العلى العظيم، أقامت اتصالا بين مختلف الموجودات، وشاركتهم في تردد نغم مشترك. وهكذا فالمطلوب (المبحث) الاسمي هو النقاء والعودة إلى النور. حيث يمكن للإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة بفضل عطاء الله الخاص. فالله العلى العظيم يزيل حجب الوجود المادية للشخص الذي يرفعه إلى هذه المكانة. ويضمن تكامله بكل الوجود بانتقاله إلى خاصيته الإلهية. وينشئ اتصالا بلا عائق أو واسطة بكل شيء ومع كل فرد في الكون. وهكذا فعندما ينتشر في الأجواء صوت سيدنا داود عليه السلام يمدح (يناجي) الله ويقرأ التواشيح، فإن الجبال والطيور تكرر هذه الترنيمات المباركة؛ ويشترك الكون في ترديد هذه المدحيات المتجهة إلى الخالق والتي اختفت في خاصيته[1].

---

(١) kutup المرجع السابق ، ج.١٢، ص١٠٩-١١٠.

الأنعـــام:

وهكذا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم فإننا سوف نلحظ على الفور مدي الأهمية التي خصها للحيوانات والتي هي جزأ مهم في المنظومة المتكاملة. ويبين (ريتشارد فولتز) أن القرآن الكريم قد منح الحيوانات أهمية كبري وصورها بشكل أكثر إيجابية وصحة تفوق بكثير تلك التي منحتها إياها الأديان السماوية الأخرى[١].

وسنبين أن عددا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء حيوانات مختلفة. فالذي يتفحص القرآن الكريم يمكنه أن يجد أسماء حيوانات متعددة وردت في أماكن مختلفة من القرآن الكريم منها البقرة، والنحل، والعنكبوت، والنمل... وغيرها. وعلى سبيل المثال نري أن القرآن الكريم قد اشتمل على اسم الكلب ١٧ مرة، والقرد ١٦ مرة، والخنزير ١٥مرة، والثعبان ١٤ مرة، والشاة ١٣مرة، و الجمل ١٢مرة، والثور والبقرة ١١ مرة، والحصان ١٠ مرات، والبغال ٩ مرات، والحمير ٨ مرات، والذئاب ٧ مرات، والنحل ٦ مرات، والنمل ٥ مرات، والعنكبوت ٤مرات، والبعوض ٣ مرات، والذباب مرتان.

وعرض القرآن الكريم اللافت للنظر والمتعلق بالحيوانات يتمثل في أن الحيوانات ما هي إلا أمم أمثالكم. واستخدام لفظ (الأمة) والذي هو تعبير خاص وهام في العرف والمصادر الإسلامية لكي يعبر به عن الحيوانات يلفت النظر من ناحية أن ذلك ما هو إلا حقيقة مؤكدة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وفي وجهة نظر (يازر) أن هذه الآية تذكر بوجود الأسرار الكثيرة والعظيمة التي يستفيد منها الإنسان في تنظيم حياته ومن خلق الأحياء

---

(١) Foltz, Richard, they are communities Like you: Animals in Islamşc traditional Muslim Culture, (New York: 205) basilyor.

الأخرى من أجل فهم قوة الدلائل على وجود الله تعالى). أما مفهومها ومعناها فإن الحيوانات مثلها تماما مثل الإنسان (خلقت في بادئ أمرها من تراب، وأخذت مظهر الحياة، ودفعت تحت إطار من النظام).

لقد تم تحديد أرزاقها وآجالها، وهي تأخذ طعامها وشرابها من الأرض حسب تقدير معين، كما أنها تحمل صفات النوع والمشابهة من خلال أشكال مختلفة كما هو الحال لديكم، وهي تعيش مجتمعة مثلكم، وتتعارف على بعضها البعض، وتتقارب أو تتباعد مع بعضها البعض، إنها تشم وتتنفس، تتقاتل، كما تتوالد مثلكم من بعضها البعض، وتتكاثر.

إنها خرجت مثلكم من أصل واحد، ومن ثم تكاثرت وتنوعت. إنها جميعها وبقدرة الخالق وحكمته وتأثيره قد خرجت من نفس واحدة ثم تعددت وتنوعت واختلفت وتجزأت إلى أقسام مختلفة تعيش حياة حيوانية مثلكم، ثم تفرقت وانفصلت إلى أنواع مختلفة. أن الكائنات التي تدب على وجه الأرض والطيور التي تطير في السماء وغيرها من الأنعام ما هي جميعها إلا تواز لكم بما فيها جانب التشابه، إنكم تشبهونها أيضا في تصنيفاتكم وفي خصائصكم، إنها جميعها في أحوالها الدفاعية والتي وضعت وفق قوانين حاكمة ونظم خاصة في دائرة التقدير الإلهي وتدبير المولي عز وجل تعمل وفق النظام، وهي في خصائصها المرئية و الخفية تعد كل أمة أمثالكم وفي كل واحدة منها تجدون درسا فيه العظة وفيه العبرة أنها جميعا آيات للكتاب الحكيم وكل منها ما هو إلا منظومة من الدلائل على القدرة الإلهية في المخلوقات الأصلية ونظم الوجود (...) والذين لا يفهمون أن كل واحد من الأحياء ما هو إلا آية في حد ذاته، كما أن الذين لا يعملون على الوصول إلى نتائج مشابهة ما هم إلا جاهلون مهما أوتوا من العلم[1].

---

(١) يازر، المصدر السابق ٣، ص٤١٨.

والقرآن الكريم يريد من العرب وهم أول المخاطبين أن ينظروا بدقة وتفحص إلى الجمل الذي عرفوه جيدا وهو جزء لا ينفصل عن حياتهم اليومية، فيقول: (﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟﴾ ومن ثم ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ؟ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ؟ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ؟﴾ وأول المخاطبين من قبل القرآن الكريم كانوا يرون بكل تأكيد إبلهم، والسماوات بكل اتساعها، وكذا الجبال التي تمتد بعظمة في أعماق الصحاري اللاهوتي. ومع ذلك فإن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى أن ينظر بعين جديدة إلى كل الطبيعة وكل ما تحويه وذلك بإصرار وباضطراد. وعندما يتعلق الأمر بالحيوانات التي هي موضوع حديثنا فإنه يرغب في أن تري كإشارات (آيات) على وجوده ﷻ وأنها ليست مجرد نظرة تفيد فقط تلك المخلوقات (المباركة). وإنما هي إشارات إلى وجود الخالق ﷻ في ذات الوقت. ومرة أخري، فعندما يكون موضوع الحديث هو العلاقات مع تلك فإن (البعد الإلهي) لا يمكن أن تحيد به العين في وقت من الأوقات.

وفي أثناء معالجة (يازر) للآية ٢١ من سورة المؤمنون فإنه يقول:"إن لكم في الأنعام لعبرة. فالأنعام أي تلك التي تندرج تحتها حيوانات مثل الغنم والماعز والثور والجمل والتي يستفاد منها كثيرا فيها من العبر مثلها في ذلك مثل الأشجار والحدائق، ومن لا يعرف عنها شيئا فهو مثل (الأنعام) أو ربما أشد منها. فمنها تشربون مما في بطونها، حيث يخرج من بين الفرث والدم لبنا خالصا ناصع البياض تشربونه. وكيف يمكن فرز مثل هذا بواسطة طبيعة عمياء؟. إن لكم فيها الكثير من المنافع، أنكم تأكلون منها وتستفيدون بها ولكن بشرط أن تعوا وتعلموا وكما تستفيدون من الثمار والمحاصيل فإنكم تستفيدون من تلك أيضا. إنكم تأكلون من لحومها وعليها وعلى الفلك تحملون وتنتقلون.

ومرة أخري فإن من الأنعام ما يحملكم ويجركم مثل الثور والجاموس. ومع ذلك فإن الجمال هي التي تحملون عليها وهي مثلها في ذلك مثل الفلك. ربما لهذا السبب كان الشعراء من العرب يطلقون على الجمال اسم (سفن اليابسة أو الصحراء) ومثله في ذلك مثل ما نطلقه على القطار من اسم (باخرة اليابسة). ويري أنه عندما تذكر تلك الأشياء المفيدة في خلقها، فإنه يرد على الفور فيما بعد تقريبا السفينة التي صنعت كنتاج لصنع الإنسان. وبهذا الشكل فإنه طبقا للآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]

فكما أنه شيء لافت للنظر أن الله تعالى كما خلق الإنسان فإنه خلق الأشياء التي يصنعها الإنسان، وتكون النبوة التي هي مصدر للخلاص والتربية للمجتمع الإنساني وتعلى من شأن بركة المكاسب التي حققها بها قد وضعت من أجل أن تكون مدخلا للقصص التي سيأتي ذكرها والخاصة بالكافرين في مواجهة النعم. [١]

كنا قد أشرنا إلى أنه قد صارت هنالك نظرة مفيدة تتعلق بعدم وجود أي قيمة أو فائدة للأنعام بالنسبة للإنسان أو أي شيء آخر من مجرد أنها آلة محركة من تلك كما كنا قد أشرنا إلى أنه خارج نطاق الفوائد التي يجنيها الإنسان من الأنعام فليس هنالك من أثر كبير لفناء الأنعام اليوم أو فعالية كبيرة لنفاد ذريتها، أو أي قيم أخري وكذا أشرنا إلى نظرة الاستفادة المتعلقة بعدم وجود شيء سوي أنها آلة حية. ولكن من وجهة نظر قرآنية فإن الأنعام ما هي إلا أمة مثلها في ذلك مثل الإنسان تماما[٢] لدى إعطاء وضع مختلف كثيرا لها، كما أن القرآن الكريم يبين أنها خلقت من قبل المولي ﷻ. وعلى ذلك فإن السبب الوحيد لخلق الأنعام لا يمكن أن يقاس بفائدة تحققها للإنسان وحسب.

---

(١) Yazir. المصدر السابق ج.٥، ٥٢١.

(٢) انظر الأنعام: الآية ٣٨ .

أنها خلقت كعنصر توازن في الحياة. ومن هذه الزاوية أيضا فإن هنالك مستويات لوجود (لحياة) مختلف عن الإنسان. وحتى حينما لم يكن الإنسان شيئا، كانت توجد الأنعام. وبالرغم من هذا، فإن المؤكد أن الإنسان كان سيستفيد من الأنعام. إن الحكمة التي من أجلها خلق الله الأنعام التي لا حصر لها وبهذا القدر وكذا القوانين التي تسير عليها تلك، لا شك في أنها تحقق في الإنسان الاستمرارية والجمال في حياته، كما أنها خلق الطبيعة لكي يمكن للإنسان العيش فيها وخلق الأرض من أجل حياة يمكن حبها وعشقها ولكي يتخذ منها العبرة والعظة.

وحينما يبحث القرآن الكريم في البقرة والماشية (مثل الغنم والماعز وغيرها....) فإنه يوضح أولا أنها خلقت من قبل الله تعالى، ولهذا السبب فإنها دليل من دلائل وجوده ﷻ. ولهذا السبب أيضا فإن النبي ﷺ يرد على من يسألونه عن المعجزات بأن ينظروا إلى العالم من حولهم أو إلى السماوات والأرض وأن يتأملوا الحيوانات التي تعيش بينهم. أن الله تعالى جعل لنا الأرض مهادا، وشق لنا فيها الطرق والممرات وأنزل لنا من السماء مطرا، حيث قال تعالى في قرآنه المجيد ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣ -٥٤]. وعلى هذا فإنها تعبر بوضوح عن الحيوانات في استفادتها من الطبيعة وحقوقها فيها،وكذا في أن الإنسان لن تتحقق له تلك الفائدة عندما يعمى عنها أولا يراها [(١)].

(١) انظر النحل الآية: ١٠ .

ويلفت القرآن الكريم النظر إلى هذا الشأن في كثير من المواضع، حيث يقول: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦][1].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥ – ٧][2].

وحينما يشكو الله تعالى من الكافرين من البشر، فإنه يقرب لهم ذلك بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ -٧٣]

والواقع أن الشيء الذي يريده المولي تعالى في مقابل منحه تلك الحيوانات المباركة كمساعد ومعين للإنسان ما هو إلا شيء بسيط. ومن الممكن أن يصنعه أي إنسان. إن الآية الكريمة تشير إلى أن ذلك يتحقق في ذكره والشكر له ﷻ يقول تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٣ – ١٤]

ومرة أخري يلفت النظر عند قوله تعالى ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] . إن الخيل هي مخلوقات أصلية ومهمة إلى هذا الحد حتى أن المولى ﷻ يقسم بالخيل خاصة. قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ [العاديات: ١ – ٥]

والقرآن الكريم في ربطه لسيدنا سليمان عليه السلام الذي وجب عليه وحتى علينا ذكر الله تعالى بتلك الحيوانات بمقطع تاريخي قدمه لنا على هذا النحو:

---

(١) وانظر المؤمنون: الآية ٢١.

(٢) وانظر أيضاسورة الفرقان: الآية ٤٨-٤٩، سورة المؤمنون: الآية ٧٩-٨٠، سورة الأنعام: الآية ١٤٢.

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ص: ٣١ – ٣٣]

وهناك سورة في القرآن الكريم باسم النمل. وقد جاء اسمها من الآية رقم ١٨ في السورة نفسها، قال تعالى فيها: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٨ – ١٩] .

إن الآية الكريمة وهي تحكي عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام تشير إلى وجود تواصل بين النمل والإنسان وبين النمل وبعضه البعض. وأيضا فإن عشش (مساكن) النمل يتم تنظيمها وترتيبها بحساب دقيق شأنها في ذلك شأن خلايا النحل. وفيها نعلم أن لكل شخص مهمة واضحة. وبالرغم من أنها تعطي انطباعا لعقل بارع وفائق؛ فإن الناس في معظم الأوقات يظلون في عجز عن عمل مشابه لجزء من ذاك الصنيع. وكما هو موضح، فإن سيدنا سليمان عليه السلام كان يتقدم بجيشه المكون من الطير والجن. وعلى هذا النحو فإن النمل كان يتجه نحو واد به كثير من النمل. وعلى هذا فإن القرآن الكريم يطلق على هذا الوادي الذي فيه حشد كبير من النمل اسم (وادي النمل). وكانت نملة على رأس هذا الحشد وتمثل المسئول عن نظامها وعن حمايتها، فقالت لها (بلغة مقبولة ومتداولة فيما بينها من خلال تواصل وتخابر خاص): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

وقد فهم سيدنا سليمان عليه السلام ما قالته النملة فتبسم. لقد فرح وسعد من قلبه لمعني الكلمات التي نطقت بها. وكما يفرح رجل عظيم لا يتواني في توقيع العقوبة أو الجزء فقد فرح لمسعى من أحد الصغار اللذين يسعون إلى التخلص من تلك العقوبة أو ذاك الجزء.

لقد كان في غاية السعادة لما فهمه من هذا الكلام دون واسطة. لأن تلك هي نعمة أنعم الله بها عليه. وفي ظل هذه النعمة فإن الذي هو مغلق على الناس ويضع العقبات فيما بينهم يصبح محروما منها بسبب قصوره في التواصل مع ما في الحياة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كون النملة تمتلك فراسة على هذا النحو وسماع باقي النمل لما تقوله من كلمات وإطاعتها لها قد جعل سيدنا سليمان عليه السلام فرحا من أعماقه. وذلك لأن ذاك الحديث يبعث على الدهشة والعجب.

ويرى أن القرآن الكريم قد تحدث في كثير من الآيات عن الطيور أيضا. أنه يتعجب من أولئك اللذين يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم إثبات وجود الله تعالى ، فيتساءل: (﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ ثم يضيف ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

وعلى هذا النحو يؤكد على أن الطيور التي لها مكانتها لا يمكن الاستغناء عنها في حياتنا سواء في القفار أو المساكن وما هي في الأصل إلا مجتمعات تشبهنا تماما. يقول تعالى في كتابه الكريم﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]يقول (قطب) في هذه الآية: إنها تخبر إن الطيور والحيوانات والحشرات لها لغتها الخاصة التي تحقق لها تفاهما فيما بينها وتكون وسيلة لحمايتها. وكون كل واحدة منها مجتمعا من الحياء يوجب عليها أن تكون لها وسائلها التي تنظم أعمالها، وتحقق لها تواجدها في ترابط واضح وتفاهمها فيما بين بعضها البعض. أما هذا اللون من الخصائص والصفات فإنه يمكن أن يساهم في تجميل حياة الكثير جدا من الطيور والحيوانات والحشرات. إن العلماء المتخصصين في هذه المجالات يبذلون الكثير من الجهد من أجل فهم لغتها ومعرفة وسائل التفاهم فيما بينها من خلال التخمين والفرضيات وليس من خلال الأحكام القاطعة والدامغة. وعندما تأتي إلى مسألة تعليم الله تعالى لسيدنا سليمان عليه السلام للغة الطير، فإن ذلك كان شيئا خاصا به على وجه التحديد، وقد تحقق من خلال ملكات معجزة تختلف عن الأشياء التي تعود عليها الناس، وإلا لكان هنالك من العلماء المعاصرين

والمتخصصين من يقوم بالسعي أو بذل الجهود الخاصة من أجل فهم لغات الطير وغيرها من الأحياء مثل سيدنا سليمان عليه السلام مستخدمين في ذلك الوسائل العلمية والنظرية وغيرها من الوسائل[1].

ومرة أخري نجد القرآن الكريم يبحث عن الطيور كمجتمع يتغلب على جيوش كبيرة في بعض الأحيان[2]. وفضلا عن ذلك فإنه يقدم أيضا المفاتيح المهمة التي تتعلق بالعلاقة بين الإنسان والعالم لدي بحثه عن الأنبياء القدماء.

كما أن القرآن الكريم يوضح بطريقة أخري أن الله تعالى كرب للعالمين قد منح داود عليه السلام حكما بأن تأتمر بأمره كلا من (الجبال والطيور) وتتساوي الجبال والطيور في الهدف الذي من أجله تتوسل إلى سيدنا داود. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩][3] وهنا يلاحظ مرة أخري أنه قد ذكر الله تعالى خالق المخلوقات جميعها وأنه يعبده وحده. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ١٨ -١٩]

ويقال إن أكثر الحيوانات (حشرا ونشرا) في حياة العرب اليومية هو الجمل. ومن الممكن أن يري ذلك سواء في الثقافة أو في الشعر العربي الكلاسيكي أو حتى في الثقافة العربية المعاصرة. ويمكن أن يري إلى أي مدي كان الجمل يحوز على أهمية قصوى منذ جد العرب الأكبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حتى وقتنا هذا من خلال هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٧]

---

(١) قطب: المصدر السابق: ج١١، ص١٢٩- ١٣٠.

(٢) انظر سورة الفيل: الآية ١-٣.

(٣)وانظر أيضا: سورة سبأ: الآية ١٠، سورة ص الآية ١٨- ١٩.

وإذا كانت هنالك من أهمية للجمل في حياة العرب، فإن القرآن الكريم من خلال الآيات التي أنزلت أولا يرغب في أن يدقق العرب في خلق الجمال وأن يروا الجمال كدلائل على وجود الله ﷻ ٧: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧][١].

المخلوقات هي أمانة الله لدى الإنسان:

وكما أشرنا قبل ذلك، فإن أساس مفهوم الطبيعة الذي بينه القرآن، يعتمد على أن جميع المخلوقات (الحية وغير الحية) بما فيها الإنسان خلقها الله. فالله الذي خلق العالم بأكمله والسماوات والأرض، خلق كذلك الإنسان من طين، ثم قضى له عمرا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ .... هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ....﴾ [الأنعام:١- ٢]ففي هذا المفهوم الإنسان و الطبيعة ليسا عنصرين منفصلين أو غريبين عن بعضهما بل هما أمة خلقت من نفس الخالق.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. ويجب على الإنسان أن يدرك درجة الاختلاف بينه وبين الطبيعة، فلا يتعامل مع الطبيعة والمخلوقات التي فيها كما يريد، بل على العكس، عليه الشعور بالمسئولية وعدم الإسراف. وإذا أخذنا في الاعتبار قول الله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] يتضح لنا أن على الإنسان واجب الحفاظ على الاهتمام بهذا القدر وعدم الإخلال به.

وقد قام (إسماعيل ر. فاروق) الذي ينبه على النبرة التي أوردها القرآن الكريم بكثافة للتكنولوجيا وللأعمال القيمة والمنظمة التي خلقت في الطبيعة

---

(١) ولمعرفة المزيد من الآيات عن الجمل، انظر: سورة الحج: الآية ٣٦-٣٧، سورة الشورى: الآية ١٥٧.

من خلال تلك الشواهد والإثباتات والتي تلخص بشكل جميل للغاية علاقات الإنسان بالطبيعة. أولها: إن الطبيعة، ليست ملكا للإنسان، وإنما هي ملك الله تعالى، ثانيها: أن نظام الطبيعة في إمرة الإنسان يمكنه أن يفعل فيها ما يشاء (من خلال قواعد واضحة). إن الطبيعة قد خلقت في شكل من السكون والوقار. ثالثها: هنالك ضرورة للإنسان أن يتصرف مع الطبيعة بصورة أخلاقية سواء ذلك لدى استفادته منها أو عند استخدامه لها. رابعها: إن الإسلام يطالب الإنسان بالبحث في العلوم الطبيعية والنظام العام للطبيعة كما يطالبه بالبحث عن القوانين التي تكون جمالها وفهمه لها[1].

والسبب في كل هذا هو أن (الأمانة) عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان[2]. فضلا عن أن الله تعالى مهد الأرض وأعدها لتكون في خدمة الإنسان، وقدر لنا فيها أرزاقنا لنأكل منها، وأوضح لنا كيفية الاستفادة منها، وأخبرنا قائلا (اعلموا أنه بعد موتكم وتحلل أجسادكم ستبعثون مرة أخري وتعرضوا علينا)[3]وبين بشكل واضح لا لبس فيه أننا مسئولون عن أعمالنا ومحاسبون على كل ما قدمنا.

وعند النظر من هذه الزاوية فإن التوازنات (الكولوجية) التي أعلنها الإسلام كدلائل على وجود الله ﷻ وأنه هو الخالق لهذه الحياة الدنيا تري أنها لا تتوافق مع مفهوم خلافة تفسد وتدمر النظام والانتظام في الطبيعة. وما ذاك إلا لأن معنى الخليفة هو الوكيل. أما معنى ذلك فهو أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي منحه الله تعالى المسئولية على وجه الأرض وأن المسئولية على

---

(١) Serdar; Ziyauddin: Hilal Dogarken, Ceviri: S. Yalcin (Istanbul: Insan Yayinlari, . ١٩٩٤) ss. ٢١٣-٢٤٩.

(٢) انظر سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٣) انظر سورة الملك: الآية ١٥.

وجه الأرض قد تركت له لحمايتها. وهذا الوكيل لا يجوز له أن يهين أمانة (الذات) الذي قام بخلق نظام واضح لهذا العالم وجعله بمثل هذا التناغم والتناسق. وهذا الذي يقوم بتخريب وإفساد هذا النظام وذاك التناغم يذكر إذ ذاك على أنه وكيل سيئ.

إن الإسلام يمنح الأذن لكي يتم الاستفادة من الطبيعة والتي ترى كنعمة من الله ومنة منه وفضل، ولكن تلك الاستفادة لا توجب استخدامها بصورة وكيف لا ينبغي. وذلك لأن أحد المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام هو الإيمان بالآخرة. وطبقا للإسلام فإن كل الناس سيجمعون أمام رب العالمين وسيجازى المحسن والمسيء كل بحسب عمله. ومن غير الممكن لأي أحد- وليس الشخص المسلم المؤمن والحساس أو الشخص البسيط وحسب- أن ينسي في أي وقت من الأوقات أنه مسئول عما يفعله تجاه غيره من كل المخلوقات وبسبب هذا فإنه سيحاسب عما اقترفه في حقهم في يوم من الأيام. والإسلام يبين هذا الموضوع لكافة المسلمين في هذه الآية الكريمة. ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨] كما أن رسولنا الكريم ﷺ قد حذرنا من ذلك بقوله:

في يوم القيامة ستؤدون الحقوق إلى أصحابها. وحتى الكباش ستأخذ عديمة القرن حقها وتقتص من ذات القرن. وكذا الرجل سيسأل عما أصاب به غيره ولماذا تسلق حجر على حجر[1] وخلاصة القول إن الإنسان الذي هو خليفة سيحاسب عما اقترفه من أقوال أو أفعال تجاه العالم بموجب الأمانة التي يحملها.

Muslim, Birr ٦٠ (٢٥٨٥) Tirmizi, Kiyamet ٢ (٢٤٢٢).(١)

وعلى هذا فإن المسلم حين يستفيد من أنعم الدنيا لا يتصرف بمفهوم استهلاكي غير محدود أو غير مسئول. ولكن على العكس من ذلك فإنه مضطر في كل سكناته وحركاته وأشكال استهلاكه أن يدعم مبادئ الاقتصاد الإسلامية. ومن الواضح أن المناقشات والدراسات لأشكال التنمية والاقتصاد والتي يمكن أن تستمر ويفهم منها في كل يوم بصورة جسده أن المصادر في الدنيا محدودة في حين يؤكد القرآن الكريم على المفهوم الذي يذهب إلى أن كل شيء (ما هو إلا نعمة ولطف من الله تعالى).

الإسراف هو الإثم:

وعند النظر من هذه الزاوية فإنه يتضح أن الله تعالى هو الذي قدر الأنعم كلها وأن شكر الله عليها هي مسئولية أخلاقية وأن السبب في تحريم القرآن الكريم للإسراف يفهم جيدا في هذا السياق. و القرآن الكريم يلوم أولئك الذين لا يرون أو الذين لا يمكنهم أن يروا أنعم الله كآية من آياته، وهؤلاء الذين لا يتفكرون فيها أو يأخذوا العبرة الممكنة منها، وبدلا من أن يصيروا في النهاية من الشاكرين لأنعم الله يصبحوا من الكافرين، ويستخدموا أنعم الله عليهم في الفساد. إنه يعمل على أن يزيل هذا التصرف. إن القرآن الكريم يؤكد على هذا الموضوع المهم في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وعدم الإسراف في أنعم الله يقابل بالحرمان من حب الله، كذلك فإنه على حين يأمر بالمساعدة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فإنه يحذر من ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ كما أنه يوضح ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٦ -٢٧]

إن الإسراف ليس مجرد استهلاك لمصادر الطبيعة بجهل وحسب، بل هو في ذات الوقت عدم احترام للخالق سبحانه والذي هو صاحب وخالق كل هذه النعم. ولهذا فإن المأكل والمشرب حلال، ولكن الإسراف حرام حسب الدين

الإسلامي. إن الإسراف الزائد وغير العادي لا يؤثر فينا فحسب، بل في الأجيال القادمة أيضا. وبالإضافة إلى ذلك فإننا إذا أخذنا بعين الاعتبار قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فإن الانتباه إلى هذا القدر والسعي إلى إفساده يقع على الإنسان. وإذا ما تم التفكير في أن عدم الإسراف في المصادر الطبيعية وعدم إفساد الصفات الطبيعية واستخدامها من جديد وإمكانية استمراريتها هي من المبادئ الأساسية لمفاهيم وعلوم البيئة الحديث يصبح من السهل الفهم بصورة جيدة لمفهوم الذي أشار إليه القرآن الكريم حينما ربط بين (الآية والنعمة والشكر وعدم الإسراف) كأشياء متعلقة بالموجودات التي تحيط بنا. وعند النظر إلى أنواع وأشكال التصرفات الإنسانية التي رسمها القرآن فإن الذي ينظر إلى عالم الوجود من حولنا ويراه كدليل على وجود الله ويشكر على هذه الأنعم بشكل أخلاقي، في هذه الحال يصبح لدينا (شكل) إنسان فر من الإسراف والتحكمية وكافة أنواع الإسراف.

الخاتمة:

إن القرآن الكريم قد غير من الإدراك المتعلق بالمجتمع الذي نزل فيه وكذا بقية العالم. وقد أصبح التوحيد نموذجًا لعالم وإنسان جديدين.

إن المبدأ الأساس للمفهوم الذي يعبر عن لب وأساس الإسلام يعني مفهوم وحدة الإله. إن وحدة الله تظهر نفسها في وحدة الإنسانية ووحدة الطبيعة إن جميع المخلوقات قد خلقها الله تعالى .

إن الله تعالى هو الذي يزين السماوات بالشمس والقمر والنجوم ويزين الأرض بأنواع مختلفة من الأزهار والأشجار والحدائق والمنتزهات وغيرها من أنواع الحيوانات.

إن الذي يجري الماء على الأرض والذي يمسك السماء (بغير عمد) والذي ينزل الغيث والذي يحفظ الحدود ما بين الليل والنهار هو أيضًا الله تعالى . إن كل ثراء الكائنات والأحياء هو إبداع وأثر من آثار خالق الكائنات.

إن الذي أوجد النباتات والحيوانات أزواجًا وحقق لها التكاثر هو أيضًا الله تعالى ،وفوق كل ذلك فإن الله تعالى هو الذي خلق بني الإنسان.

ونحن الأمناء والخلفاء لله على وجه الأرض. وكما أننا لسنا أسيادا للأرض أو للطبيعة فإننا أيضا لا نملك أن نفعل أو لا نفعل شيئا في هذه الدنيا كما نريد. أن الطبيعة قد خلقت من قبل المولي ﷻ وهي ملك له. وكل شيء في الطبيعة هو آية أو إشارة ووثيقة على وجود الله تعالى .

وعلى حين ينبهنا القرآن الكريم باستمرار إلى ذاك البعد المعنوي والمقدس للطبيعة، فإنه يعود ويؤكد على أن الذي خلقنا هو الله وأننا سنعود إليه مرة أخرى ليحاسبنا على أعمالنا. ومعني هذا أننا قد صرنا مسئولين عن كل أعمالنا أي عن الحسنة و السيئة منها. إن الإنسان الذي هو خليفة سوف يحاسب يوم القيامة عن أعماله وتصرفاته وكيف كانت أمام الأمانة.

إن يوم الدين لن يكون للحساب على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب. إنه سيكون يوم حساب لأعمال وتصرفات الناس الذين يؤمنون أيضا بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة.

وخلاصة القول فإن كل مسلم حقيقي هو ذاك الذي يهتم بحماية وحب البيئة وكل ما بها من أحياء لأنها باسم الله فهو الذي خلقها وهو الذي ائتمننا عليها. إنه التزام واهتمام أخلاقي يقوم على أساس من المودة والشفقة أكثر منه التزام قانوني.

وأما الحيوانات الموجودة في هذا العالم- والتي تسلم أمرها لله هكذا كما هو الشأن عند الإنسان الذي يسلم هو الآخر أمره إلى الله- هي أمة تشبه تماما

هذا العالم. وكل شيء في هذا العالم الجديد يسبح الله بلسانه الخالص به، ويتحرك في اتجاه تنفيذ أوامر الله تعالى .

ولهذا السبب فإن قوانين الطبيعة ليست سوى (تنفيذ لأوامر الله تعالى أيضا). وعلى هذا، فإن الكائنات في نظر المسلم ما هي إلا مخلوقات كانت تعود إلى ساحة مسرح للحياة متحركة في إطار أمر وفعل الله. [١]

إن دور الإسلام هو إقامة تعادل وتوازن وسلام بين الأرض والسماء من خلال مراقبة الصلاح النهائي للإنسان. وعند التدقيق في الماهية الكهنوتية للواقع تكون هي الطبيعة حتى أن كوننا في داخل سلام مع الكون المحيط بنا وهو بيئتنا الأولي والأخيرة هو شرط رئيس لكوننا داخل تناسق مع بيئتنا القرية. وطالما لم نعش في انسجام وتوافق مع الله، فلن نتمكن من العيش في تناسق وانسجام مع الكون. إن الإنسان بصفته خليفة الله يمكنه أن يحكم الطبيعة التي هي أمانة منحت له بشرط قبوله السيطرة التي تعلوه من قبل الله تعالى فقط، وطالما أحنى الرأس لله، أحنت المخلوقات رأسها له. [٢].

(١) Faruk, Ismail R. Tevhid, Ter: Dilaver Yardim. Insan Yayindlari. I`

(٢) Chittick, William C. "Allah Herseyi Cepecevre Kusatir", Karakalem Dergisi, s. ١٣, ٢٠٠٤ [http://karakalem. net/? Article = ٩٢٨].

البيئـــة
في المجتمع العثماني

المدخل:

ستحاول هذه الدراسة- على الرغم من قصرها- توضيح مفهوم البيئة في المجتمع العثماني بصدد علاقات الإنسان بالطبيعة والتي كانت مسيطرة ومهيمنة في المجتمع العثماني. ومن الواضح الجلي أهمية فهم وإدراك نظرة الدولة العثمانية- المعروفة بوصفها واحدة من أكبر الدول المشهورة في تاريخ الإنسانية- لما يتعلق بالبيئة.

وفى الحقيقة فإن الحاجة قد أضحت ماسة نحو صدور دراسة كهذه في عصر تصاعدت فيه مشكلات البيئة، وأيضًا يتم فيه تدريس فلسفة البيئة وأخلاقها في الجامعات الحديثة؛ ولأن لمشكلات البيئة خاصية أخرى، وهى أنها ليست مشكلات محلية فحسب، بل هى مشكلات كوكب بأكمله وتهم البشر جيمعًا. ولهذا السبب فإن عرض وجهات نظر جديدة ومختلفة في موضوع البيئة يدفع بكل البشر إلى الاهتمام به بنفس الشكل والمستوى.

في البداية، فإن مصطلح البيئة يُطلق في العصور الحديثة على البيئة الطبيعية والتي تحيط بالإنسان، أما ما يفهمه المسلمون فهو أنها أمانة الله؛ ولذلك فيجب فهم أن المجتمع العثماني كون أحكامه فيما يتعلق بجميع الموجودات، وكون علاقاته وأشكال تصرفاته مع هذه الموجودات في إطار هذا الفهم. وبالإضافة إلى هذا توجد حقيقة أخرى وهى أن علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقة الإنسان بالمجتمع داخل المجتمع العثماني متداخلة ولا يمكن فصلها عن بعضها البعض. أما أجمل مثال يوضح هذا الأمر فهو، أنه عندما يقوم الإنسان العثماني ببناء بيت لنفسه، فإنه لم يكن ليهمل أعشاش الطيور التي تبنى في القسم الخارجي من المنزل والتي تشكل وحدة واحدة مع منشآته المعمارية. وبعبارة أخرى، فإن وجهة النظر العالمية للمسلم العثماني تُرى بوضوح في تكوين الفرد لنفسه وكذلك في إنشائه للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها.

وتوجد نقطة مهمة أخرى، وهى ما هو المقصود بالمجتمع العثماني. ويُقصد هنا (الأمة الحاكمة) للشعوب الإسلامية والتي تشكل العمود الفقري للدولة وتتمثل بشكل خاص في الفرقة أو الجماعة العثمانية الحاكمة؛ لأن الدولة العلية كانت دولة متعددة الأعراق والقوميات والأديان. وكان نظام الملل يمكن اليهود والمسيحيين من المعيشة في سلام وطبقًا لنظمهم القانونية[1].

وبعبارة المؤرخ الشهير (جيبونس): "فى الفترة التي كان اليهود يُقتلون قتلًا جماعيًا والتي حكمت فيها محاكم الكنيسة الكاثوليكية عليهم بالموت، كان العثمانيون يسمحون للأشخاص الذين ينتمون للديانات المختلفة الموجودين تحت حكمهم بالعيش في سلام وتناغم.

أما المستشرق المشهور (كارل بروكلمان) فيوضح أن الأتراك المسلمين كانوا يمتلكون القوة والمقدرة التي تمكنهم من القضاء على المسيحية في أثناء فتوحاتهم، إلا أن الدين الذي ينتسبون إليه لا يشجعهم على هذا، وذكر فرمانًا للسلطان "محمد الفاتح" (١٤٥١م- ١٤٨١م) يتعلق بالموضوع[2]. كما نعرف

---

(١)هربرت آدم جيبونس: قيام الإمبراطورية العثمانية. ترجمة: راغب خلوصى. استنابول. ١٩٢٨. ص ٦٣.وكما هو معروف، فقد عاش على أرض الدولة العثمانية الكثير من الشعوب والأعراق. فمن ناحية عاش المسيحيون واليهود والسميريون والصابئة والزردشت واليزيدون، وغيرهم من الناس الذين ينتسبون إلى مذاهب مختلفة وكذلك الجماعات والمجتمعات الدينية المختلفة، ومن ناحية أخرى عاش فيها الروم والبلغار والبوماق والصرب والكروات والألبان والعرب والمجر والترك والأكراد.. وغيرهم من شعوب وجنسيات وأمم وأعراق، وعاشوا سويًا متمتعين بالأمن والأمان خلال قرون عدة، وبصورة أكثر دقة إلى أن حل القرن التاسع عشر حيث ظهرت قوى الحركات القومية. انظر:-أ.د. ضيا قاضيجى: التسامح الدينى في الدولة العثمانية. كوبرو. ١٩٩٩. ص٧٧.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الأمم والدول الإسلامية. ترجمة: ن. جاغاطاى، أنقره ج ١. ص٢٥٨. وانظر فيما يتعلق بالفرمان المشار إليه:

-عثمان نورى أركَين: التطور التاريخى لعلم المدن في تركيا. إستانبول. ١٩٣٦. ص٩٣-٩٤. وانظر أيضًا: قاضيجى. المصدر السابق.

أيضا أن مفهوم الدولة العثمانية الذي يكون أساس كل ما تم ذكره قد استقى أساسه القانوني من الإسلام.

إن الهدف من هذه الدراسة هو المساهمة والمساعدة في فهم قيم وتصرفات المجتمع العثماني المسلم فيما يتعلق بالإنسان والبيئة. والهدف كما ذكر (ليزلي لبسون): " يتعدى مجرد تقليد الحلول التي وجدها أجدادنا، هو أن نكون على بينة وعلم بالدرجة التي تمنحنا قدرًا أكبر منهم في الجرأة والحيوية في الاقتراب من مشكلاتهم أو ما يبدونه تجاهها"[1].

ومن ثم الاستفادة من تاريخنا بشكل إيجابي وبناء في حل مشكلاتنا. ولكن من أجل فهم هذه القيم في روابطها ومن أجل التمكن من تفسيرها بشكل صحيح، فإننا نحتاج إلى إطار نظري في البداية. وهكذا سيتم فهم القوى الأساسية التي تكون القيم المتعلقة بالبيئة في المجتمعات الإسلامية والتي أسهمت في إحيائها.

الإطار النظري:

يلاحظ أن لكل حضارة أنشأها بنو الإنسان على مر التاريخ، وكذلك للمؤسسات التي أحيت هذه الحضارة خصائص متفردة تتميز بها عن غيرها. وفي الحقيقة فإن هذه الخصائص والفلسفات الأساسية هي التي تجعل إقامة حضارة ما ممكنًا، وهي التي تميزها عن غيرها، وهى التي تجعل التلاقي بين الحضارات ممكنًا. وبعبارة أخرى بمكن رؤية الحضارات كنماذج واقعية للرؤى العالمية المحددة أو لفلسفاتها. وكمثال على ذلك فإن الحضارة الإسلامية " مبنية على أساس روحاني؛ وهى لذلك تعطى أهمية لأن يُدرك

---

(١) لسلى ليبسون: الأزمات الأخلاقية للحضارة. هل هى الذوبان المعنوى؟ أم التقدم؟ ترجمة: زاله جام يشيلطاش. إستانبول. بنك العمل التركى. المنشورات الثقافية. ٢٠٠١. ص٣٢ .

الإنسان جيدًا علاقته بكل الوجود، ومكانه أو مكانته في الوجود. وعندما يصل الإنسان في ضوء هذا الفهم إلى مرتبة الإيمان، فإن إيمانه يدعوه إلى تطهير نفسه واستمراره في تطهير قلبه، ويدعوه إلى ملء قلبه وعقله بالمبادئ الرفيعة، وهذه المبادئ هي: القناعة والشرف والإخوة والحب والخير والتقوى...." [1].
وبالتالي فإن كل مسلم ملزم بوضع هذه المبادئ نصب عينيه في كل ما يفعله ويقوم به.

وبتعبير مؤرخ الحضارات المشهور (مارشال هودجسون):" في الحقيقة إن روابط العقيدة الإسلامية مليئة بالأوامر المُلحة التي تدعو المسلمين إلى السعي صوب المبادئ الإلهية في كل نواحي الحياة (...) إن الإسلام يقدم الوحي الإلهي تامًا ومكتملًا والذي انتقل من ثقافة إلى أخرى ومن ثم كثر وتشعب بشكل كبير حتى أنه وصل إلى أصغر الأماكن الدينية[2].

وفي الحقيقة فإنه من الممكن أن نرى بوضوح تام تأثير هذه المبادئ التي ذكرناها في أثناء حديثنا عن المؤسسات الأخرى- وفي مقدمتها المدن- والتي أوجدت تلك الحضارات وغيرها من الحضارات التي نشأت في أماكن مختلفة من العالم على مدارس التاريخ في العالم الإسلامي؛ ولهذا السبب فليس من الممكن فهم هذه المؤسسات وتفسيرها بشكل صحيح بدون فهم وجهة النظر الإسلامية وتصورها للعالم[3].

في حين يؤكد (جان لويس ميتشون) المتخصص في موضوع المدن الإسلامية "أن سبب وجود الأمة الإسلامية وجميع المدن الإسلامية هو عبادة

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة سيدنا محمد. ترجمة: وحيد الدين إينجه. إستانبول. يونه ليش. ٢٠٠٠. ج٢.ص ٤٠٢ (بتصرف).

(٢) مارشال هودجسون: المخاطرة الإسلانية: الوعي والتاريخ في حضارة عالم Iz Yayincilik ١٩٩٣. ص٢٧.

(٣) جان لويس ميتشون: (المؤسسات الدينية): المدينة الإسلامية. إشراف: ر.ب. سيرجانت ترجمة: أليف طوبجيكيل. إستانبول. Agac Yayinlari ١٩٩٢.

(الله) الواحد الأحد"، فإن (خليل إينالجق) أيضًا يلفت النظر إلى نتيجة هي أن المدينة العثمانية هي " تنظيم مادي واجتماعي واضح المعالم يعتمد على مبادئ الشريعة الإسلامية ويعكس هذه المبادئ" [١].

وقد اكتسبت إشارة (هودجسون) إلى قوة الدين بوجه خاص ونفوذه في إثبات الحضارات والدلالة عليها "أهمية أيضًا في هذا الصدد[٢]. ولكل هذه الأسباب وحتى يتم فهم علاقة الإنسان بالبيئة في المجتمع العثماني بصورة أكبر، فإنه يتحتم علينا الإشارة إلى العناصر الأساسية للرؤية الإسلامية للعالم التي تحدد شبكة هذه العلاقات وتحيط بها حتى ولو كان ذلك بشكل موجز ومختصر.

الرؤية الإسلامية للعالم:

إن التاريخ العثماني- فيما يتعلق بموضوع بحثنا- عن علاقة الإنسان بالبيئة هو أمر يتم الحديث فيه مرارًا وتكرارًا على أنه شأن حافل بالأهمية لدرجة تسلط فيه الأضواء على الإنسانية بأكملها وليس علينا وحسب.

---

(١) جان لويس ميتشون: (المؤسسات الدينية): المدينة الإسلامية. إشراف: ر.ب. سيرجانت ترجمة: أليف طويجيكَيل. إستانبول. مطبوعات آغاج. ١٩٩٢. ص٣٥. وأيضًا، خليل إينالجق: (إستانبول مدينة إسلامية). مطبوعات جائزة إستانبول. الفتح و الفاتح. إعداد: مصطفى آرماغان. مطبوعات الأعمال الثقافية لبلدية مدينة إستانبول. ١٩٩٥. ص٨٣. وانظر أيضًا: Kemal Karpat The Ottoman State and Its Place in World History. E.J. Brill Leiden. ١٩٧٤.

(٢) هودجسون: المصدر السابق. ص١٢. ونشير هنا إلى أنه بالرغم من أن هودجسون أوضح وبين أن المسيحية والبوذية كانت لهما مكانة رئيسية بين الشعوب، إلا أنه أكد على أنه لن يتمكن من الحديث بشأن هاتين ولو حتى عن مدينة واحدة منهما بشكل خاص. والموقف فيما يتعلق بالإسلام موضوع حديثنا جد مختلف، "فالأشخاص الذين يشتركون في أعراف العقيدة الإسلامية، أصبحوا داخل إطار من الإتصال مع بعضهم البعض، في حدود تطويرهم لثقافة خاصة بهم. كما أضيفت حوارات ثقافية بين بعضهم البعض. (المصدر السابق) ص٢٧. وللإطلاع على مزيد من المعلومات حول الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في الدولة العثمانية، انظر أيضًا كمال هـ. قارباط: عصور التاريخ العثماني. وجهة نظر في المقارنة البنيوية العثمانية والعالم. إعدد: كمال قارباط إستانبول. Ufuk Yayinlari. ٢٠٠٠. ص١٢١-١٢٦.

وعند النظر في النماذج الموجودة في هذا الموضوع يصبح من اليسر فهم ذلك، ومع ذلك، فإنه لكي يمكن التعبير عن الوثائق الأرشيفية والسجلات الشرعية والأوقاف فضلًا عما شهد به الرحالة الذين زاروا الأراضي العثمانية وقدموا شهاداتهم في هذا الشأن وعبروا عنها بعبارات مشابهة لـ" حكايات عجيبة ومشوقة"؛ يجب الإشارة إلى وجهة النظر إلى العالم وإلى القيم الأساسية لوجهة النظر تلك، من أجل أن نسترشد بها في حاضرنا وحتى نجد فيها ما يساعدنا على حل مشاكلاتنا؛ ولهذا السبب سيُشار بدايةً في هذه الدراسة إلى القيم الإسلامية الأساسية التي شكلت تصرفات كل المجتمعات المسلمة- خاصة عند الحديث عن علاقة الإنسان بالطبيعة- وليس المجتمع العثماني فحسب والذي يمثل موضوعنا.

ولأن الإسلام بوصفه آخر دين سماوي لا يدعو إلى الإيمان بالله الواحد والعبودية له فحسب، بل ينظم أيضًا حياتهم اليومية- متخطيًا حد كل القيم النسبية-، ويأمر البشر باتباع أحكامه في كل لحظة وفى كل صفحة من حياتهم. ولهذا السبب فإن ما يحدد علاقات الإنسان بالإنسان والإنسان بالمجتمع والإنسان بالطبيعة في مجتمع يتبع إرادة الله ويرضى بها، هي عبارة عن سلطة إلهية.

وفى الواقع فإن المحرك الأساسي هو التأكيد على أن المسلمين "جماعة خيرة ومثالية أخرجت من أجل البشرية"، وأنهم ليسوا جماعة منحطة. وأكثر الصفات التي تميز هذا المجتمع هي "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله"[1].

---

(١) ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

كذلك فإن الرسول ﷺ تحدث في الأحاديث النبوية التالية عن كون هذا المجتمع مرتبطًا بالكامل ببعضه البعض، ويؤكد أيضًا على أن هذا الارتباط عضوي وروحي: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[1]. وأيضًا (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

إن مصطلح أو مفهوم " عضوي" الذي يشدد عليه مرارًا وتكرارًا قادة الفكر البيئي في عصرنا الحاضر ويريدون ترسيخه صار وعيًا وشعورًا عالميًا[3]. والنقطة الأساسية التي يركز عليها هذا المفهوم هو أن هذا العالم هو عالمنا الوحيد، وأيًا ما يحل بجزء من عالمنا فإنه سيحل بنا نحن أيضًا.ولهذا السبب لا يجب أن يكون الإنسان غير مهتم بالمشاكل الموجودة في بيئته. ولو حدث العكس فسيقع عليه الضرر نتيجة لتلك المشاكلات. إن مبدأ الرسول ﷺ الذي ذكرناه فيما سبق يركز على الأساس والقاعدة المجتمعية، كما أنه يرسخ وعي المجتمع بمصطلح " عضوي" الذي أحياه ونظمه الإيمان بالله.

وبالتالي فإن سبيل فهم الأسس والمبادئ الأخلاقية التي تشكل وتوجه المجتمعات الإسلامية الوجهة السليمة، يتأتى من خلال فهم مبادئ الإسلام الأساسية وفي مقدمتها التوحيد وبعث الرسل والحشر والحساب، وبعبارة أخرى ففي وجهة النظر الإسلامية للعالم توجد كثير من مفاهيم القيمة المركزية

---

(١) البخاري، ١٩٨٤ .

(٢) البخاري، الأدب ٢٧. مسلم ١، ٦٦ .

(٣) انظر:

-Carolyn Merchant, The Death of Nature: Women, Ecology and the Scientific Revolution, San Francisco: Harper and Row, ١٩٨٠.

التي تتضمن كل مجالات الوجود الإنساني، والتي تنظم قربه وفهمه لبيئته الخاصة التي يعيش فيها.

إن (إسماعيل ر. فاروقي) الذي درس بدقة وعناية في مفهوم التوحيد الذي يشكل الأساس الذي تتألف منه خلقة طبيعة (غائبة)- تعتقد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة- منظمة ذات مقاصد وغايات، قام بتسجيل الملاحظات التالية:

إن الطبيعة (على المستوى الميتافيزيقي) هي عالم غايات يوجه كل شيء لهدف ما وبهذه الصورة ففيها يوجد المساهمة والإعانة على خير وتوازن كل شيء.... يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨] وهذا يمثل التوازن البيئي الذي يعظم من وعي وإدراك الإنسان المعاصر المعرض لخطر تلوث البيئة الحالية بصورة تبعث على القلق. أما (على المستوى الأخلاقي) فإن الإسلام يعلن أن الطبيعة يمكن أن تكون تكريمًا من الله للإنسان، وهكذا فإنها ساحة أو (مجال) لإمكانية أن يثبت أنها ذات قيمة قصوى من الناحية الأخلاقية، وأنه من الممكن له أن يستفيد منها وينمو ويتطور فيها.

أولًا: إن الطبيعة ليست ملكًا للإنسان، بل هي ملك لله تعالى.

ثانيًا: نظام الطبيعة يكون تحت سيطرة الإنسان الذي يمكنه القيام بعمل التغيرات التي يريدها في هذا النظام (في إطار قواعد محددة). إن الطبيعة قد خُلقت في حقيقة الأمر سلسة طيعة.

ثالثًا:إن الإنسان ملزم بالتصرف بشكل أخلاقي خلال استفادته من الطبيعة وفي استخدامه لها.

رابعًا: يطلب الإسلام من الإنسان أن يبحث ويفهم العلوم الطبيعية والقوانين التي تكون النظام العام للطبيعة وجمالها[1].

وبناء على هذا، فلا يمكن فهم الإسلام ولا فهم الحضارة الإسلامية التي أعطاها الروح والحياة بدون فهم المبادئ التي تظهر وتشكل جميع القيم الإسلامية.

القرآن والسنة باعتبارهما مصدر القيم الإسلامية:

من الواضح الجلي أن جميع النظم الإسلامية وفي مقدمتها القانون الإسلامي المعروف تأخذ مشروعيتها انطلاقًا من المصدرين الرئيسين؛ أي من القرآن الكريم والسنة النبوية. ويتوجب على المجتمعات الإسلامية الرجوع إلى نفس المصدرين عندما تسعى إلى فهم العلاقة بين البيئة والإنسان، أو تبنى لهذه العلاقة قواعدها وأصولها.

وحينما كان (ماول ى. عز الدين) عالم القانون الإسلامي المعاصر يتناول بشكل موسع العلل القانونية والأخلاقية الإسلامية فيما يتعلق بالبيئة وحماية البيئة، فإنه قد عمل في البداية على توضيح المصادر الدينية لهذه المبادئ.

وبناء عليه، يمكننا فيما يلي أن نقدم باختصار بعض المبادئ الأساسية التي توضح الوعي البيئي لدى المجتمعات المسلمة:

أولها: إن البيئة هي خلق من خلق الله تعالى. وحمايتها يتمثل في المحافظة على قيمتها باعتبارها آية من آيات الله. والاعتقاد بأن الفوائد التي تعود على

---

(١) ضياء الدين سردار: حينما يولد الهلال. ترجمة: ش. بالجين. (إستانبول، الإنسان، ١٩٩٤) ص ٢١٣-٢٤٩. وانظر أيضًا: إسماعيل ر. فاروقي: التوحيد. إستانبول، Insan Yayinlari ، ١٩٨٧ص ٦٧-٧٨.

الإنسانية من البيئة هي الدافع الأوحد لحماية البيئة، يمكن أن يؤدي إلى الاستخدام الخاطئ للبيئة أو يؤدي إلى تخريبها ودمارها.

ثانيها: إن جميع المخلوقات الموجودة في الطبيعة تسبح خالقها باستمرار،والبشر ليس بمقدورهم أن يفقهوا شكل هذا التسبيح أو يعرفوا ماهيته. ولكن هذه الحقيقة التي وضحها القرآن الكريم هي سبب آخر يدعو إلى حماية البيئة. ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤][1].

ثالثها: إن جميع قوانين الطبيعة هي قوانين شرعها الله، وهي تعتمد على مفهوم الاستمرارية المطلقة للوجود. وحتى لو حدثت أحيانًا بعض التغيرات في سنة الله فإن كل شيء يكون قد حدث وفقًا لقوانينه في الطبيعة، ويجب على البشر أن يقبلوا هذا بوصفه إرادة الخالق.. ومن المهم جدًا منع محاولات التعدي على شرع الله. ومثلما أوضح القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] .

رابعها: يعتمد على الآية القرآنية: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] والتي تبين أن البشر ليسوا الأمة الوحيدة التي تحيا في هذا العالم، وأنهم ليسوا دائمًا أفضل من الأمم الأخرى، وتعنى أيضًا أن المخلوقات الأخرى (الأمم) هي موجودات مثلنا وأنها تستحق الاحترام والحماية.

خامسها:أن جميع العلاقات الإنسانية تستند على مفهوم أنها قائمة على مفهوم العدل والإحسان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]

---

(١)وانظر أيضًا: الحديد:آية ١، الجمعة، آية، ١ .

وكما ذكرنا من قبل فإن السنة النبوية هي المصدر الثاني الذي يبين تصرفات المسلمين نحو البيئة. ويقصد بكلمة السنة نماذج الأقوال البليغة و"القدوة" التي تشكل كلمات الرسول ﷺ وأفعاله وتصرفاته [١].

ومما يجذب الانتباه قول الرسول ﷺ حينما كان يتحدث عن مهمته الأساسية " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [٢]. ولهذا السبب يجب قبول نبوة الرسول وقبول رسالته التي أرسل بها، وأيضًا يستوجب على المؤمنين اتباع " السُنة" المتعينة والواقعة في شخصه والتي أمر الله تعالى المؤمنين باتباعه مادحًا له في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]

وعندما ندقق في عبارة السيدة عائشة حينما كانت تعرف أخلاق الرسول بقولها:" خلقه القرآن" [٣]، يُرى أن الرسول كان في نظر المسلمين " القرآن الموجود في حالة فعل وعمل".

وبتعبير (ميتشون): " إن الرسول هو الواسطة (المصطفى ، أو المختار) الذي اختاره الله تعالى ليس من أجل إيصال البشر إلى معرفة الكتاب السماوي وحسب، بل –فى نفس الوقت- من أجل توجيه البشر إلى سبيل العودة إلى (الله الواحد الأحد). وهو في ذات الوقت حامل لرسالة واضحة ولقوانين الإسلام، وهو تجلٍّ باهر ورائع للحق ﷻ [٤]. ولهذا يُلاحظ أن المجتمعات المسلمة وفى مقدمتها المدن تأثرت بسنة النبي بدءًا من عادات الأكل والشرب في الحياة اليومية، وحتى علاقاتها بالبيئة.

---

(١) لمزيد من المعلومات حول مفهوم السنة والمناقشات التي تتعلق بها المفهوم: انظر:
م. خيرى قيرباش أوغلى. ميثودولوجيا (علم المنهج) الحديث في الفكر الإسلامى. أنقره. ١٩٩٩.،د. محمد كَورمز: مسألة فهم الحديث والسنة و الميثولوجيا المتبعة في تفسيرها.أنقره. TDV Yayinlari. ١٩٩٧.

(٢) الموطأ، حُسن الخُلق ٨، المسند، ٢: ٣٨١.

(٣)مسلم: المسافرين١٣٩. ١. ٥١٣، أحمد بن حنبل: المسند، ٤: ٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣، ١٨٨، ٢١٦

(٤)جان– لويس ميتشون، ٢٢.

ويُلاحظ أيضًا أن المجتمعات المسلمة اتبعت السنة أو سعت إلى اتباعها في الأمور. وفى رأى (هدجسون) فإن الأحاديث الشريفة فضلًا عن أنها أثرت في مسألة الاتحاد بين المسلمين الذين يعيشون في مساحة واسعة تمتد من المحيط الأطلسي حتى الهند، فقد أثرت كذلك في تشكيل نماذج تصرفات متشابهة ومحددة. [١].

وعندما نظر إلى سنة النبي ﷺ فيما يتعلق بالبيئة والحيوانات، تلفت هذه الأحاديث الانتباه: " إن جميع المخلوقات محتاجة إلى الله وأفضل هؤلاء من يفيد المحتاجين لمساعدة الله [٢]. ويقول الرسول إن الإنسان مسئول عن الأشجار والحيوانات وجميع الموجودات في الطبيعة، ويقول في هذا الموضوع:" السبب الوحيد لعدم عقاب الله لكم هو العجائز الذين طعنوا في السن والأطفال الذين يرضعون والحيوانات التي ترعى في مزارعكم" [٣].

ومن المعروف أن الرسول اهتم كثيرًا بغرس الأشجار ورعاية الأشجار الموجودة بالفعل، وبتكوين الحدائق ورعاية الحدائق الموجودة بالفعل. وأحد أهم التنبيهات والأوامر في هذا الموضوع قوله:" لو قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليزرعها" [٤].

وأيضًا يلاحظ أن هذا الحديث الشريف الذي سنذكره يوضح شكل كثير من المؤسسات الإسلامية، وفى مقدمتها الأوقاف [٥] ويقول رسول الله ﷺ في

---

(١) هودجسون، ١٣ .

(٢) إسماعيل بن محمد العجلونى: كشف الخفا ومزيل الإلباس. دار نشر: أ. قاللاش.(سوريا– الشام: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣) ٤٥٨: ١ .

(٣)المصدر السابق، ٢١٣: ١ .

(٤)المناوى: فيض القادر، ٣/٣٠ .

(٥) انظر: نظيف أوزتورك: مؤسسة الوقف في إطار تاريخ التجديد التركى. أنقره. TDV Yayinlari ،.٢٢. ١٩٩٥-٢٤.

هذا الحديث: " إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علم علمه ونشره، وولد صالح تركه، ومصحف ورثه، أو مسجد بناه، أو بيت لابن السبيل بناه، أو نهر أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته". رواه ابن ماجه (١). ومن جانب آخر فإن ما يلفت النظر في الحقيقة هو الدقة والتأنق في المعاملة التي أبداها الرسول في هذا الشأن وفى صور متعددة منها الشفقة على الحيوانات، وحمايتها، وعدم إيذائها أو الحطّ من شأنها.

وفى هذا الإطار فإن الرسول يأمر المسلمين بأن يرحموا كل كائن حي وليس البشر فحسب، فيقول: "إن الله الرحمن يرحم مَنْ يرحم. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (٢).

وفى حين يقول في حديث آخر:" من يقتل عصفورًا ظلمًا فإن الله تعالى سيحاسبه يوم القيامة" (٣)، فقد أمر بعدم هدم أعشاش الطيور وعدم أخذ بيضها وأفراخها، وباختصار أمر بعدم إيذاء الحيوانات وبالقيام بتنظيفها ورعايتها واستخدامها في أمور تناسب خلقها وعدم تحميلها بأحمال زائدة على طاقتها وعدم صيدها لمجرد المتعة والتسلية (٤).

ومثلما شكل كل من القرآن والسنة آراء المجتمع المسلمة على مدى التاريخ، فإن هذا من أسباب قولنا بأنهما حددا علاقات المجتمع المسلمة بالبيئة. ومن أجمل النماذج التي توضح هذا هو ما يمكن رؤيته في المجتمع العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكما يوضح أحد المؤرخين الأتراك فإن الإنسان العثماني الذي كان يعيش في هذين القرنين كان يفكر ويتحدث

---

(١) المناوى: ٨٧/٤ .

(٢)الترمذى: البر، ١٦. أبو داود، الأدب، وسوف يتضح فيما بعد كيف أن هذا الحديث قد أثر في جهود المسلمين العثمانيين فيما يتعلق بحماية الحيوان. انظر الجزء المتعلق بقرارات المحكمة في هذه المقالة .

(٣)أبو داود .

(٤)انظر: إبراهيم أوزدمير: البيئة والدين. منشورات وزارة البيئة. أنقره. ١٩٩٧. الجزء الرابع .

ويتحرك طبقًا لأوامر الدين وطبقًا للمبادئ التي نشأت عن العرف والعادات والتقاليد التي تكونت في هذا العصر. واتخذ من جميع هذه المبادئ أساسًا له وهو يدير أموره اليومية ويتزوج ويكسب المال ويورث ويترك هذا العالم الفاني.[1].

وبعد أن قمنا بهذا التأصيل النظري يمكننا أن ننتقل إلى الأمثلة المتعلقة بكيفية فهم وتطبيق هذه القيم في النموذج العثماني.

التطبيق:

على الرغم من أنه يمكن رؤية التطبيق والتنفيذ للوعي البيئي- الذي كان سائدًا في الحياة اليومية لعلماء البيئة الذين كانوا يهيمنون على المجتمع العثماني- على مستويات متعددة، إلا أنه سيتم هنا دراسة التطبيقات التي قام بها الحكام أكثر، وقرارات المحكمة (السجلات الشرعية)، وبعض الشرائح من الحياة الاجتماعية. وفى حين تم التركيز على الوثائق الأرشيفية لدراسة وجهة نظر الحكام فيما يتعلق بالبيئة وفي دراسة تطبيقاتهم، ثم الاستفادة من الدراسات التي تمت للسجلات الشرعية لدراسة التطبيقات القانونية.

أما بالنسبة للنماذج التي ظهرت على مستوى المجتمع فسيتم الاستفادة من ملاحظات الرحالة الغربيين الذين تجولوا بالدولة العثمانية لأسباب متعددة، بل أقاموا فيها مدة وأمكنهم دراسة ومراقبة المجتمع عن كثب.

تطبيقات الحكام فيما يتعلق بالبيئة:

(١)بهاء الدين يدى يلديز: المجتمع العثماني. تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها. إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلى. إستانبول. (IRCICA) ١٩٩٤.ج ١. ٤٨٨.

عند دراسة قرارات السلاطين العثمانيين (الإرادة، الفرمان، الأمر الهمايوني، ... وغيرها) فيما يتعلق بالبيئة، فليس من الصعب ملاحظة أن هذه القرارات تستند على الأرضية النظرية التي تم الحديث عنها فيما سبق. وبعبارة أخرى يفهم أن المبادئ والأسس الإسلامية الأساسية التي كانت سببًا في تحقيق حضارة الإسلام أثرت في قرارات الطبقة الحاكمة العثمانية وفى تطبيقاتها فيما يتعلق بالبيئة.

وأول تطبيق يجب تناوله في هذا الإطار وسيتم تقسيمه على أساس بعض الأطر النظرية التي ذكرناها فيما سبق، حدث في عصر السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١). ويلاحظ أن السلطان الفاتح- الذي قام بوضع موانع حتى لا تزدحم منطقة الخليج بإستانبول- قام بمنع رعي الحيوانات في حوض نهر كاغدخانة ومنع إقامة المباني ومنع فتح الحقول.

كما أنه أمر بتشجير سفوح الجبال المعرضة للتآكل ومنع قطع الأشجار من الغابات. ويوجد دليل آخر على الوعي البيئي لدى الفاتح، وهذا الدليل هو وصيته. وبجانب كون وصيته وثيقة مهمة فيما يتعلق بموضوعنا، فيمكن تقييمها باعتبارها نموذج مثالي على الرأي الإسلامي. وبعد أن يتم عرض نص تلك الوثيقة، سيتم عمل تقييم موجز لها.

ونص الوثيقة هو:

" أنا فاتح إستانبول العبد العاجز السلطان محمد الفاتح، أحدد الوقف الذي يتكون من (١٣٦) من المحلات التجارية، والتي هي أرض غير محددة الحدود، وتقع في منطقة

طاشليق بإستنابول والتي قمت بشرائها بذاتها بنقودي التي كسبتها بعرق جبيني بهذه الشروط. ونصها فيما يلي:

عينت على كل شارع من شوارع إستنابول شخصين بمرتباتهم التي سيحصلون عليها من هذه الممتلكات غير المنقولة الخاصة بي.

وعلى هؤلاء أن يطوفوا بالشوارع في ساعات محددة من اليوم وفي أيديهم وعاء بداخله تراب الجبس ورماد الفحم. وعليهم أن يسكبوا هذا الرماد على الذين يبصقون في هذه الشوارع وعلى بصاقهم. وليأخذ هؤلاء يومية قدرها ٢٠ آقجه.

وكذلك عينت ونصبت عشرة جراحين وعشرة أطباء وثلاثة مضمدي جروح. وعلى هؤلاء الخروج إلى إستانبول في أيام محددة من الشهر، وعليهم أن يطرقوا كل الأبواب بلا استثناء ويسألوا عن وجود مريض في ذلك البيت من عدمه؛ ولو وجد مريض فعليهم معالجته أو مداواته إذا أمكن. ولو لم يشفى فعليهم أن ينقلوه إلى دار العجزة بدون أن ينتظروا منه أي مقابل وعليهم أن يجدوا له علاجًا هناك.

وإذا حدثت لا قدر اللهأزمة في أي من المواد الغذائية، يتم إعطاء أصحاب القوة مائة سلاح تمكنهم من مواجهة موقف كهذا. وعلى هؤلاء أن يصعدوا الجبال ويصطادوا الحيوانات الوحشية التي ليس لها بيض أو صغار. وعليهم أن ينتبهوا إلى عدم ترك مرضانا بلا طعام.وكذلك عليهم أن يطعموا نساء الشهداء، وفقراء مدينة إستانبول في المنزل الخيري الذي أقمته وأنشأته لإطعام الفقراء في كليتي. ولكن لو لم يأتوا بأنفسهم ليأكلوا الطعام أو ليأخذوه فيلزم أن يتم نقل الطعام إلى منازلهم في أوعية مغلقة ويتم ذلك في جنح الظلام وبدون أن يرى أحد ذلك" .[1]

وعند التدقيق في وصية الفاتح، يمكن أن نرى بوضوح تأثير القيم الإسلامية في إصدار هذه الوثيقة وفى تشكيلها. وفى البداية يلفت النظر

---

(١) لم نستطع الحصول على أصل هذه الوثيقة. وقد استخدمنا النسخة التي قمنا بتصحيحها من قسم صحة البيئة بمعهد جوهر نسيبه للتعليم. وفي الأساس فإن هنالك أحكاما مشابه لذلك أظهرها الفاتح وتوجد في وقفيات أخرى. انظر :وقفيات محمد الثاني الفاتح، أنقرة: منشورات المديرية العامة للأوقاف، ١٩٣٨.

استخدام حاكم مثل الفاتح لعبارة " التي كسبتها بعرق جبيني"، وأنه أوقف عدد ١٣٦ دكانًا اشتراها بهذه الأموال لله تعالى [1].

إلا أن الأهم هو المكان والشكل الذي سيستخدم فيه الإيراد الذي سيحصل عليه من هذه الأوقاف. وأوضح الفاتح شكل استخدام هذه الإيرادات في صيغة لا تترك أي مجال للهوى. وطبقًا لهذا:

١- تم تعيين شخصين على كل شارع من شوارع إستانبول...

٢- ويقوم هؤلاء الأشخاص بتأمين نظافة الشوارع من الناحية الصحية ويأخذون أجرًا في مقابل هذا...

٣- كما تم تعيين عشرة جراحين وعشرة أطباء وثلاثة مضمدي جروح، ويقوم هؤلاء بتمشيط إستانبول من فوقها إلى تحتها في أيام محددة من الشهر حيث (يقومون بالطرق على كل باب بلا استثناء) ويسألون عن وجود مريض في ذلك البيت من عدمه، ولو وجد فإنهم يقومون بما يلزم لمداواته وتأمين شفائه.

والأمر الذي يلفت النظر هنا، هو أن الفاتح جعل غير المسلمين وكل المجموعات التي أصبح يشار إليها بالمصطلح الشائع في يومنا هذا "الآخر" يستفيدون من هذه الخدمة بدون أدنى تفريق.

وهنا أيضًا ما يذكرنا بالآية رقم ٨٠ من سورة الشعراء ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾. كما يلاحظ أنه كان يتم نقل المرضى الذين تستلزم حالتهم ذلك إلى دار العجزة، وتتم معالجتهم هناك، وهنا أيضًا لم يلاحظ وجود أي تفريق.

---

(١)قارن ذلك سورة البقرة: آية: ١٧٧، آل عمران: آية:٩٢.

٤- وفي حال حدوث أزمة اقتصادية يقوم الصيادون بتسلق الجبال وصيد الحيوانات البرية بأسلحة يوفرها لهم الوقف من أجل توفير الطعام والغذاء الأساسي للمرضى.

إلا أنه وحتى في أثناء عملية الصيد- الذي يوصى به من أجل جلب الغذاء الذي يعد من الاحتياجات الأساسية للبشر الذين يعانون من أزمة- يلاحظ عدم إغفال بعض القواعد؛ فإنهم يلتزمون بصيد الحيوانات التي تصلح للصيد وبخاصة " الحيوانات التي لا بيض لها ولا صغار".

إن حساسية الفاتح في موضوع الصيد وقصر الصيد على وقت حدوث أزمة اقتصادية واضحة فحسب، وكذلك وضع أوقات وضع الحيوانات للبيض والصغار في الحسبان، يذكر بأفعال الرسول وتحذيراته فيما يتعلق بالموضوع، ويعد الرسول قدوة لكل مسلم في هذا الأمر. ولعدم التسبب في إفزاع الفريسة الوادعة [١] فقد منع الصيد بغرض التسلية وحسب. [٢]" ومن يقتل عصفورًا ظلمًا فسيحاسبه الله يوم القيامة" [٣]، وكذلك أمر الرسول وشدد على عدم هدم أعشاش الطيور وعلى عدم أخذ بيضها أو أفراخها. [٤].

٥-تقديم الطعام لعائلات الشهداء ولفقراء إستانبول في المنزل الخيري الذي أقامه الفاتح في كليته. إلا أنه كان يتم الإشراف بكل دقة على هذا الأمر، فمن الممكن أن يوجد أشخاص أو عائلات لا يأتون إلى هذا النوع من المؤسسات ولا يطعمون أنفسهم برغم كونهم فقراء؛ ولهذا السبب يقوم القائمون على

---

(١) أبو داود: الصيد. ٤. النسائى: الصيد، ٢٤؛ الترمذى: الفتن. ٦٤.

(٢)النسائى، ابن حبان (منقول عن، السباعى، المصدر السابق).

(٣)أبو داود. ١١/٢ .

(٤) المصدر السابق، الجنائز، ١: البخارى: الأدب المفرد. ١٣٩.

المنزل الخيري بتسجيل هذه الأسر ويصلون إليهم بدون أن يمسوا كرامتهم أو يجرحوا مشاعرهم.

ولهذا السبب أيضًا فإنهم يقومون بتوصيل الطعام والمواد الغذائية " إلى منازلهم داخل أوعية مغلقة في ضوء الشمس الخافت أو في جنح الظلام حتى لا يراهم أحد". وبالإضافة إلى وجود الكثير من الآيات في هذا الموضوع، فإننا نذكر هنا بشكل خاص التحذير الوارد في الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة [١] والآية رقم ٣ من سورة الماعون. ولكي يتجنب المسلمون أن يتم إدراجهم تحت التحذير الوارد في الآية رقم ٣ من سورة الماعون ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ فإنهم على مدار التاريخ يسرعون إلى مساعدة الفقير واليتيم ومن لا أهل له بالزكاة والصدقة والإحسان [٢]. وحتى هذه المادة الأخيرة الموجودة في هذه الوصية يمكن رؤية أنه تم اتخاذ أخلاق الإسلام وسنة الرسول كقدوة من جهات عديدة.

أما الوثيقة الأخرى المتعلقة بالموضوع فهى النيشان الهمايونى (المنحة السلطانية) التي تعود إلى عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠- ١٥٦٦) [٣]. وعند النظر إلى هذا النيشان الهمايوني المتعلق بالإبقاء على نظافة أحياء وشوارع وأسواق أدرنه، نرى أن:

---

(١) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

(٢)(ولا يحض على طعام المسكين). سورة الماعون، الآية ٣ .

(٣)انظر:-أ.د أحمد آق كَوندور: قوانين الدولة العثمانية. إستانبول. ج ٦/٤٥٠، وللحصول على مزيد من المعلومات حول (النيشان الهمايونى) وما شابهه من مصطلحات سلطانية، انظر أيضًا:-م.ز. باقالين: قاموس التعبيرات والمصطلحات التاريخية العثمانية. إستانبول. MEB ، ١٩٩٣.

* لا يمكن أن تترك كل المنازل والدكاكين وما حولها في صورة متسخة وما يتسخ يتم تنظيفه وتطهيره في الحال.

*تحديد وتعيين ما يؤدي إلى قذارة أسواق وأحياء الموظفين، ويطلب منهم تنظيف ما ألقوه بأنفسهم. لذلك كانت الأعمال تتم بصورة صحية من خلال الاستفسار مسبقًا عن المنازل وأماكن العمل القريبة من المكان الذي يظهر اتساخه.

*نقل الفضلات والنفايات التي في المنزل والحانات إلى الأماكن البعيدة والخالية (الخلاء).

*الاحتفاظ بنظافة الطرق الخاصة بالحمامات.

*حماية المزارات (المقابر) وإقامة أسوار حولها، ومنع الحيوانات مثل الحصان والقط والكلب من الدخول فيها.

*عدم قيام سائقي العربات بربط ثيرانهم في أماكن قريبة من المنازل والأفنية في شكل يزعج الناس، وكذلك حمل روث الثور ونقله إلى أماكن مناسبة خارج المدينة.

*منع صب مياه الغسيل ذات الصابون المستخدمة في الاستحمام في المنازل في الشوارع بشكل عشوائي، وإعاقة الناس من عمل ذلك.

*الحيلولة دون إلقاء جثث الحيوانات مثل الخيل والخراف في الطريق بصورة جزافية أو اعتباطية، ومن يصر على مخالفة هذه القوانين يُعاقب من خلال التشهير به.

*لا يوجد عائق أمام أحد في تطبيق هذه الموانع المعدودة، وكان كل من القاضي والصوباشي يتابع هذا الموضوع بصورة ملحة.

ويظهر في هذه الوثائق وأمثالها الدقة التي كان المسئولون والإداريون يتبعونها في سبيل الحفاظ على صحة الشعب الروحية والبدنية، وكذلك الحفاظ

على نظافة الأماكن التي تستخدم كشراكة اجتماعية، وأنهم كانوا يتخذون من التدابير ما يحول دون ترك المكان فاسدًا ومتسخًا مهما يكن بالشكل الذي يفسد المظهر الجمالي للمدينة. يفهم أيضًا أنها تعطى أهمية خاصة للاحتفاظ بنظافة الطرق عندنا بشكل خاص، كما كان الحال في مجارى المياه بدايةً.[١].

وعند الأخذ في الاعتبار مكانة الدولة العثمانية في التجارة العالمية- هذه الدولة التي امتدت في ثلاث قارات والتي تغطى مساحتها عشرين مليون كيلو مترًا مربعًا والتي أقامت علاقات تجارية كثيرة عن طريق البحر، لن يكون صعبًا تخيل مدى ثقل وضخامة المواني العثمانية[٢].

وأكثر من ذلك فإن التلوث الذي يمكن أن يتسبب فيه هذا التضخم يمكن اعتباره مسئولًا عن مشكلات البيئة في البداية. لكن عند النظر في الوثائق المتعلقة بالموضوع نجد أنها تهتم أيضًا بموضوعات أخرى مثل حماية الحيوان والحفاظ على نظافة وطهارة الأرض.[٣].

نصادف أيضًا وثائق متعلقة بنقاء هواء المكان الذي يعاش فيه ومتعلقة بالتهديدات التي تمت من أجل الشعب. ويوجد فرق بين تلوث الهواء بشكل طبيعي والتلوث الصناعي. يرى أنها متعلقة بإصلاح المستنقع الذي أفسد بيئة وهواء المدينة.[٤].

---

(١) للحصول على الوثائق المتعلقة بالموضوع، انظر: عصمت بينارق: مفهوم البيئة عند الأتراك في ضوء الوثائق المحفوظة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء. Yeni Turkiye ص٥. ١٩٩٥.

(٢)انظر: خليل إينالجق: الإمبراطورية العثمانية لندن. ١٩٩٧. وأيضًا للإطلاع على دراسة حول التجارة البحرية في الدولة العثمانية، انظر: صالح أوزباران: الإمبراطورية العثمانية وطريق الهند. IUEF Tarhi Dergisi. العدد: XXXI. ١٩٧٨. ص١٣١- ١٤١.

(٣)بينارق، ١٣-١٤ .

(٤) بينارق، ١٦.

أما الوثيقة الأخرى التي تهتم بأبعاد مختلفة متعلقة بالبيئة؛ فهي المتعلقة بطهارة المسجد الأقصى.[1]. وطبقًا لذلك كانت النظافة تعتمد في البداية على السيدات اللائي يذهبن لزيارة المسجد الأقصى وقبر السيدة مريم وقدم سيدنا عيسى عليه السلام والأماكن المقدسة الأخرى. لكن كان يرجى "الوصول إلى أقصى درجات النظافة، وعدم إصدار ضوضاء، وعدم إزعاج المتعبدين".

وهكذا يرى أنها اهتمت أحيانًا بالطهارة الفيزيائية وتقصد أمور خاصة مثل عدم إصدار ضوضاء وإزعاج الآخرين.

أما الموضوع الآخر المتعلق بالبيئة فهو حماية المساحات الخضراء كما هو الحال في الغابات في البداية، ومنع قطع الأشجار الخضراء دون الارتباط بنظام معروف لقطع الأشجار. وبعبارة أخرى إذا كان قطع أشجار المنطقة من أجل الاحتياجات الضرورية، فينادى باستهلاكها بنظام واضح، وكذلك نادت النزعات التي ظهرت واستمرت كثيرًا هذه الأيام في الارتباط بنظام محدد.[2].

وفى وثائق الأرشيف بتاريخ ١٥٥٩م المتعلقة بالموضوع، يراد منع قطع الأشجار اللازمة للتصنيع من الجبال وخاصةً جبال اشمه ودكمه وصابانجا، فكان يُراد قطع أخشاب أشجارها اللازمة لصنع السفن قطعيًا. ومع ذلك، كان يتم تصنيعها من الأخشاب المقطوعة المعروف أماكنها والأخشاب المسماة

---

(١)بينالرق، ١٤ .

(٢) لمزيد من الدراسات التي تدور في إطار هذا المفهوم مع مفهوم التنمية المستدامة، انظر:

ج.رونام أنجيل، جون جب أنجيل: أخلاق البيئة والنهوض بها. لندن، ١٩٩٠. وقد تم ترجمة ونشر (أخلاق البيئة والنهوض بها) والتى تشكل إحدى المقالات الهامة والتى توجد ضمن مقدمة هذا الكتاب. مجلة كلية الإلهيات- جامعة أنقره. أ.د نجاتى أونر آرماغاني. الجزء. عدد خاص. ١٩٩٩.ص ٢٥٥-٢٦٧كما تم نشر المقالة ذاتها من جديدٍ في كتاب للدكتور: إبراهيم أوزدمير، بعنوان: الكوكب السيار بمفرده. إستانبول Kaynak.٢٠٠١م.

"الأخشاب الحرة" التي لا تباع أو تشترى من أجل تصنيع السفن مع الأخذ في الاعتبار احتياجات الشعب من أحطاب وغيرها.[١].

وإلى جانب منع قطع الأشجار التي تخص الدولة، فيُرى كذلك أنها أبرزت الأوامر التي صدرت من أجل عدم انتهاك حرمات "الحقول المزروعة والمروج" عند الخروج لتحقيق هدف مقدس مثل الحرب. وتذكرنا الوثيقة الصادرة بتاريخ ١٥٦٦م بالتعليمات التي أصدرها الخليفة الأول أبو بكر إلى جيشه، وبالإضافة إلى أن التعليمات في الاثنتين تقوي أطروحة الإسلام التي أصبحت سائدة نتيجة إدراك الأخلاق والتعليمات الإسلامية، فهي كذلك تُظهر أن هذا المفهوم يربط في نفس الشكل قواد الدولة حتى وكأنهم أفراد في النظام.[٢].

أما في الوثيقة التي يفهم أنها قد كتبت إلى أمير الرومللي فقد تم التنبيه فيها على الجنود بعدم أخذ أي شيء بلا مقابل أو الاستيلاء على "تركات وبساتين الرعايا".[٣].

ومن الواضح أن الأرشيف العثماني وهو أحد الأرشيفات الكبرى في العالم، موجود به أو يمكن أن يوجد به عدة وثائق متعلقة بالموضوع. وهى كافية إلى هذا الحد من ناحية موضوعنا.

---

(١)بينارق، ٢١ وثيقة رقم ١٤ و ٢٢، وثيقة رقم ١٧و ١٨ .

(٢) في الأوامر الصادرة بهذا الشأن من الخليفة أبي بكر الصديق إلى جنوده وما يتعلق بموضوع بحثنا هذا فإنه قال: أثناء القتال عليكم أن تلتزموا حدود العدل ولا تقتلوا أو تعتدوا على الأطفال والمسنين والنساء. ولا تقتلعوا أشجار النخيل وغيرها من الأشجار المثمرة، ولا تتلفوا أو تذبحوا الأغنام والماعز وغيرها من الحيوانات بهدف غير مشروع. انظر: مالك: الموطأ، الجهاد ١٠-١، ج ٢. ٤٤٧-٨. مسلم: الجهاد، ٣. ج٢. ١٣٧٤. وأيضًا: قومسيون: تاريخ الإسلام الكبير من النشأة إلى يومنا. إستانبول Cag Yayinlari ١٩٨٩. ج٢. ص٣٣-٣٤.

(٣)انظر: بينارق، ص٢٤. وثيقة رقم ٢١ .

وعند البحث بدقة في الوثائق المذكورة، فإن البعد المتطور والمتعلق بالعلاقة بين الإنسان العثماني والبيئة، يُرى أنه يشبه البعد المتعلق بموضوع المدنية الإسلامية. ولقد ظهرت التطورات المهمة المتعلقة بالبيئة بعد عهد التنظيمات بخاصة وكذلك مؤسسات المجتمع المدني.

وما يظهر ذلك بدقة "قانون الأراضي" لعام ١٨٥٨م و"قانون الغابات" عام ١٨٧٠م، و "مجلة الأحكام العدلية" التي اكتملت عام ١٨٧٦م. وعند البحث بوجهة نظر شاملة للمجلة، يُرى أنها اهتمت بعدة موضوعات متعلقة بالبيئة وأنها وضعت آليات وأنظمة. ويمكن أن يُذكر صدور قانون جديد في عام ١٩٠٦م عُرف بـ"قانون نظام العصور القديمة"، وكان يؤخذ فيه حماية المحيط الثقافي في الاعتبار، كما يُذكر أيضًا تأسيس جمعية "محبي عصور إستانبول القديمة" في عهد وزارة الأمير سعيد حليم عام ١٩١٢م وبعض من أهداف هذه الجمعية، كان الاهتمام بالآثار الفنية في مدينة إستانبول، التعريف بالميراث الثقافي والتاريخي وجماليات المدينة، إضافة إلى الارتقاء بإحساس الشعب بالجمال. ويظهر "أنظمة البيئة وقانونها" الذي ظهر أعوام ١٨٤٨- ١٨٦٤- ١٨٨٢. يظهر أنظمة جديدة متعلقة بالبيئة الجديدة. وفى عام ١٩١٣ يرى أنه ظهرت شروط مثل تنقية هواء المكان الذي يحمى القرى، وإزالة الوحل من البيئة وإيجاد ماء جاري في البيئة الجديدة.

قرارات المحاكم (السجلات الشرعية):

كما هو الحال في جميع المجتمعات، فقد ظل المخالفون للأعراف والتقاليد في المجتمع العثماني أيضًا في مواجهة مع الإجراءات والتدابير القانونية. لقد أصدر النظام العثماني الذي يُدار تبعًا لأساس ديني، قرارات

مختلفة في شأن المخالفين للقواعد الأخلاقية والقانونية المتعلقة بالبيئة موضوع حديثنا.

وعند البحث في بعض القرارات المتعلقة بالموضوع سيتم فهم الموقف بصورة أفضل.

من المعروف أن موضوعًا جديدًا تمامًا على الإنسان المعاصر قد ظهر في الآونة الأخيرة وهى مسألة (حقوق الحيوان). فإلى جانب حقوق الحيوان، فإننا نعيش في عصر لم تحل فيه المشكلات المادية والمعنوية المتعلقة بحقوق الإنسان، وأصبح الإنسان عدوًا للإنسان، بل حاول محو الشخصية المادية والمعنوية لكل جنس مغاير وسلب حقوقه، ويعمل على التطهير القومي (العرقي). ومع ذلك، فكنا قد أشرنا من قبل إلى التسامح الكبير الذي كان متبعًا مع الأشخاص المنتسبين إلى جماعات مختلفة في الجنس والملة والدين والثقافة والقومية داخل المجتمع العثماني، كذلك كانت كل هذه الجماعات تنال كامل حقوقها داخل إطار شامل لكل التأمينات القانونية. وفى نفس الشكل يرى أنه اتخذت بعض التدابير القانونية لحماية الحيوان ومنع إصابته بالأذى وظلمه والتعدي عليه بأي شكل داخل المجتمع التركي.

وعلى هذا النحو، تظهر مسألة (الاعتناء جيدًا بالحيوان وعدم ظلمه) قد دفعت إلى أخذ التدابير والاحتياطات اللازمة والمتعلقة بالموضوع دون أخذ في الاعتبار قرارات الإنسان الوجدانية والشخصية. وفى الوثيقة الصادرة في ٩ فبراير ١٨٢٩ تم عمل هذا التوافق المتعلق بالخيول التي تحمل الأثقال مثل الحطب والفحم والأخشاب في إستانبول، فقد طلب من خلالها أن تُتخذ تدابير صارمة حيال إراحة حيوانات الحمالين أيام الجمع، والاعتناء الجيد

بالحيوانات، وعدم الركوب على الحيوانات بعد إفراغ أحمالها، إلا أنه من المعروف أنه قد تم التخلي عنها في الأزمان المتأخرة[1].

أما في وثيقة أخرى متعلقة بالموضوع فقد أريد منع الحمالين في إستانبول من تشغيل الخيول بعد العصر، وكذلك منعهم من الركوب فوق الأحمال.

وأُقترح منهج عجيب للتمكن من منع ذلك، وهو أن يسمر ثلاثة مسامير وسط برادع خيول الحمل، وبذلك لا يمكن الركوب على الماشية. وأُعلن أن غير المتبعين لذلك سيجازون ويعاقبون بشدة[2].

أما في وثيقة صدرت في يوليو ١٧٣٠ فقد أريد منهم ذلك أيضًا معللين أن الحمالين الذين يركبون الخيول يسببون إزعاجًا في أثناء مرورهم بالشوارع بإلقائهم المياه المتسخة على المسنين والنساء والأطفال بوجه خاص، وكذلك كان مد الأغطية على أسبات الخبز (وكانوا يطلقون عليه ويُعرف بينهم بمصطلح "الخبز العزيز") التي تحملها الخيول يمثل شكلًا من عدم احترام للخبز [3] وكانت الرغبة في منع ذلك.

أما الموضوع الآخر الذي يصادفنا في قرارات المحكمة فهو متعلق بالصيد، ومن المعروف أن الصيد ممنوع في موسم الربيع منذ القدم بسبب توالد الحيوانات في هذا الموسم، ومع ذلك يُرى أنه توجد تحذيرات متعلقة بالموضوع للصائدين والقادرين على ذلك كل عام[4].

أما الموضوع الآخر الذي لاقى اهتمامًا في السجلات الشرعية فهو موضوع نظافة الجوامع والطرق والشوارع والأحياء. فطبقًا لقرار قضاء إستانبول في ٤

---

(١)صادق البيراق: الحياة الاجتماعية والبيئة في إستانبول القديمة في ضوء ٤١ وثيقة أصلية إستانبول. IGDAS ١٩٩٧، ص ٦٤. وانظر أيضًا ص٦٦.

(٢)المصدر السابق، ص٥٨ و ٦٠.

(٣)ألبايراق، ص٥٦ .

(٤)ألبايراق، ص٩٤-١٠٠.

مايو ١٦٩٦ أريد الاحتفاظ بنظافة الأحياء والجوامع والمساجد وأفنيتها والشوارع وتحمل مسئوليتها على الأئمة في البداية، والتنبيه بشدة على مجازاة من يُرى مهملًا في موضوع النظافة [١].

أما في القرار الآخر والصادر بتاريخ ١٢ إبريل ١٨١٠ وبسبب الشتاء الذي يمر شديدًا اتخذت التدابير من أجل عدم تضرر المواطنين من الثلج الذي يتجمد في الطرقات، وكذلك أن الثلج الذي يهطل من أسقف المنازل [٢]. أما عن النظر في ماهية التدابير عند عجز الأئمة،فيُرى شيئًا ظريفًا وهو دعوة الأئمة من جديد للقيام بمهمة محلية في وعظهم وإرشادهم، وتم الطلب من كل شخص القيام بالتنظيف أمام منزله ودكانه. وبمعنى آخر طلُب من الأئمة تنوير وتثقيف جماعتهم في هذا الإطار.

أما القرار المشابه فكان في ١٣ يناير ١٨٢٣، ومرة أخرى فإنه لدى استدعاء المواطنين لأداء مهامهم والقيام بدورهم إزاء فصل الشتاء الذي يمر شديد البرودة قارسًا، فإن ذلك كان يُنظر له على أنه هدف أصيل ونبيل (للأمة المحمدية) للحماية من كل أنواع التهلكة [٣].

وفيما يتعلق بنظافة الشوارع فإن القرار الصادر بتاريخ ٢٨ يونيو لعام ١٨٣٦ تضمن أيضًا التفاصيل المتعلقة بالماهية والأسس التي اعتمدت عليها هذه النظافة. وبناء عليه فإنه في كل الأحوال والظروف تعتبر النظافة (النظافة والطهارة) واجبًا دينيًا. علاوة على ذلك فإن شوارع وحواري إستانبول عاصمة الخلافة الإسلامية يجب أن تظل نظيفة على الدوام.

---

(١) ألبايراق، ص٤٠ .

(٢) ألبايراق، ص٤٢ .

(٣) ألبايراق، ص٤٦ .

أما النقطة الأخرى فتتمثل في أن " كل شخص مأمور بالإبقاء على الشوارع المجاورة لبيته طاهرة ونظيفة" [١].

أما فيما يتعلق بالحيوانات، فإن من القرارات المثيرة للاهتمام تلك التي صدرت بشأنها في عام ١٩١٩ وكان يتعلق بإعدام البلدية كلاب الشوارع وبقدر ما كان هذا القرار الصادر بشأن هذه المشكلة- التي انعكست على الرأي العام- قرارًا مهمًا بقدر ما كان غريبًا أيضًا. فعندما وجد (شيخ الإسلام) ما قامت به البلدية- وهى بمنزلة مؤسسة لدولة إسلامية- أمرًا فيه ظلم، فإنه قام بالحيلولة دون تنفيذ هذا الأمر بالقرار الذي أصدره بناء على شكوى من أحد المواطنين. وباختصار فقد كان الموضوع على النحو التالى: بتاريخ ٢٥ أكتوبر الموافق (٣٣٥ رومية)-١٩١٩ نما إلى علم المواطن (أحمد) عن طريق جريدة (تصوير أفكار) أن البلدية قامت بإعدام عدد من حيوانات الشوارع (المسكينة عديمة الحيلة)، فتقدم أحمد أفندي- الذي أحزنه هذا الأمر كثيرًا- بطلب إلى شيخ الإسلام، ذكر فيه أنه لم يجد في الحقيقة أسبابًا لاستمرار إعدام البلدية للكلاب. ولهذا فهو لا يؤيد هذا الأمر مُذكرًا بالحديث النبوي الشريف " الراحمون يرحمهم الله فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" [٢]. وعندما لم يُتخذ أي إجراء تجاه منع هذا الظلم، ولما كان هنالك قلق من أن تحل بالمنطقة كوارث أخرى، تقدم المواطن إلى شيخ الإسلام يطلب منه منع هذا الأمر [٣].

وقد تبين من الخطاب الذي كتبه شيخ الإسلام إلى مقام الصدارة العظمى أن الكثير من الناس مثلهم مثل أحمد أفندي كانوا مستائين للغاية في مواقف

---

(١)ألبايراق، ص٥٤. وفى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن صاحب كل منزل مسئول عن تنظيف الأرصفة التي توجد داخل حديقته الخاصة والتى يستخدمها المارة. وإذا لم يفعل فإنه يُعاقب من قِبل البلدية.

(٢)الترمذى: البر، ١٦. أبو داوود، الأدب، ص٥٠ .

(٣)ألبايراق، ١٠٨.

مشابهة لتلك. أما شيخ الإسلام الذي راعه ذلك، ووجد أن المواطنين على حق، فقد كان مضطرًا لأن يوجه أنظار المسئولين نحو القيم المعنوية وعادات وتقاليد المجتمع.

وأهم ما في الأمر أنه تم منع إعدام البلدية للكلاب موضحًا تحريم "الإسلام" (الدين المبين) إيذاء وظلم جميع المخلوقات الله[١].

وبقدر ما فهم من وثيقة أخرى صدرت بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٨٢٢ ضمن قرارات المحكمة، فإنه لم يتبين بدرجة كافية ما تم بشأن النفايات التي تصدر عن ذبح بعض الأشخاص لحيوانات الأضاحي. ولهذا السبب فإن القرار السالف الذكر قد حذر المهملين في هذا الموضوع ونبه على المسئولين في هذا الشأن بإنزال العقاب الرادع[٢].

الوقف والبيئة:

يمكن القول بأن من أهم وظائف نظام الوقف العثماني الارتقاء بجميع جوانب الحياة والقيم الإنسانية بدلا من الارتقاء بالجانب المادي والمالي فقط وأنه يؤكد على احترام هذه القيم. ومع أنه من الصعب فهم هذا الشأن لأن الإنسان أصبح يتصرف بشكل آلي في مسألة الاستهلاك المادي وغير المحدود للمجتمع الاستهلاكي، إلا أن الأمر بالنسبة للفرد العثماني يختلف، حيث أن هذه الدنيا بالنسبة له هي بمنزلة أمانة وما بعد ذلك فانٍ وما له من قيمة. وبمعنى آخر فإن منازل هذه الدنيا الزائلة هي بمنزلة ظل زائد، فالجالس في الدنيا مسافر سيرحل يومًا ما[٣].

---

(١)المصدر السابق، ص١١٠.

(٢)ألبايراق، ص٤٤.

(٣)ألبايراق: ص٤٤.

وبفضل هذا الفكر كان تحرير الإنسان من عبودية المال والملك بالإضافة إلى تأمين الاستعمال والاستخدام الأمثل للإنسان بداية من ثروته وإمكانيته في منفعة ومصلحة جميع الأحياء.

وبقدر ما هو معلوم عن الوقف فإن الوقف بالنسبة لمن يوقف ماله " هو أفضل أنواع الصدقة الجارية والباقية العظيمة"(1). وفضلًا عن أن مفاهيم دينية معروفة من مثل القول بأن "الحياة الدنيا زائلة وحتمًا سينتهي عمر الإنسان يومًا ما وسوف يلقى جزاء كل ما صنعه في الحياة الدنيا من خير في الآخرة" ، فإن مثل هذا الفكر الديني يُرى أنه كان عاملًا فعالًا في إظهار تأثيرات الوقف على الفرد ودفعه لأن يكون "نافعًا للمجتمع وداعمًا نفسيًا له لكي يساعد كائنًا حيًا معدمًا"(2).

وعلى الرغم من هذا فإنه عندما نحقق النصوص المتعلقة بالوقف نجد أن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت في كل الوقفيات هي المصدر الأساسي تقريبًا الذي شكل وأخرج هذه المؤسسات الخيرية إلى حيز الوجود ويأتي في مقدمة الآيات القرآنية التي ذكرت في الوقف ما تشير إليه الآية الكريمة من أنه لن تنالوا الخير " حتى تنفقوا (في سبيل الله) ما تحبون، وأن كل ما تنفقوه فإن الله يعلمه حق المعرفة(٣)، وأن الخير " البر" ليس في أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب ولكن الخير في أن تؤمنوا بالله واليوم الآخر، والملائكة و الكتاب والنبيين. والخير كذلك في صرف المال- الذي يحبه- "طمعًا في رضاء الله" على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب. كما يتمثل أيضًا في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

---

(١)نظيف أوزتورك: ٢٢، هامش ٥.

(٢) أوزتورك: المصدر السابق.

(٣)أوزتورك: ص ٢٠. (بتصرف).

كما أنه يشمل الوفاء بالعهد إذا كان هنالك تعاهد. وأيضًا الصبر في أوقات البأس "الضيق والغم" والضر " المرض" وحين البأس "الحرب" أولئك الذين يحملون تلك الخصال، هم الذين صحوا وسلموا [١].

والمتقون هم فقط [٢] أولئك الذين ورد وصفهم في هذه الآية. وهذا هو أكثر الأحاديث ذكرًا في هذا الخصوص: عندما يموت إنسان ينقطع "ثواب" عمله. ويُغلق دفتر أعماله. يُغلق دفتر أعمال الإنسان إلا من: صدقة جارية، أو أثر علمى تركه، أو ولد صالح يدعو له[٣].

وفى هذا الخصوص فإن من أول مؤسسات الوقف الخيرية والتعليمية في عهد العثمانيين كان الجامع والمدرسة والتكية ومدرسة الصبيان والحمام والمكتبة والحنفية والكُتاب والمستشفى (دار الشفاء) ودور المناسبات والكباري والطرق ونُزل الضيافة، وإذا درسنا أهداف تلك المؤسسات الخدمية وغاياتها التي أُقيمت من أجلها، وفاضلنا بين أيٍّ منها وجدناها جميعها موجهة لنفع جميع المخلوقات بلا استثناء[٤].

وبالتعبير الجميل جدًّا لأحد رجال العلم الأجانب وجد أنه منذ اليوم الذي أنشئت فيه الأوقاف " تبنت وقدمت للمجتمع الإسلامي خدمات لا يمكن أن تُقدر بثمن" بدءًا من "الجوامع، الجامعات، مدن إقامة الطلبة، الزوايا، المستشفيات، المصحات النفسية، المقابر والمدافن. وعلاوة على ذلك، فإن

---

(١)آل عمران: الآية، ٩٢.

(٢)البقرة: الآية: ١٧٧.

(٣)رياض الصالحين. ج٣. ١٤١٢. DIB Yayinlari,. ١٩٧٢. الدارمى: المقدمة. ٤٦.

(٤) انظر: أوزتورك: المصدر السابق، ص١٩. وأيضًا: د. أحمد آق كَوندو: مؤسسة الوقف في الحقوق الإسلامية وفى التطبيقات العثمانية. أنقره. TTK Basimevi. ١٩٨٨. ص٢٨-٤٢. وأيضًا: قومسيون: تاريخ الإسلام الكبير من النشأة حتى يومنا. إستانبول. Cag yayinalri. ١٩٨٩. الجزء الرابع عشر. القسم الأول

"حماية المدينة و الدفاع عنها، والحفاظ على الصحة، وإنارة الطرق، ودفع رواتب القضاة وغيرهم من الموظفين في المناصب الدينية الأخرى.

وفى سبيل تحقيق رغبات الأشخاص في التبرع بالوقف، فإن الوقف يقوم بالدعم المادي لعدة مجالات مختلفة مثل "حماية الحيوانات (كالحمير، وطيور أبي قردان، والحمام...) وإطعامها وتربيتها، وتأمين وصول مياه الشرب إلى الأسواق"، حتى أن الوقف يحقق مساعدة مادية لبعض النساء صغيرات السن من غير القادرات ماديًا[1].

وللوقف خدمات أخرى كان يؤديها كتقديم المساعدة العينية والنقدية للفقراء، وإطعام المساكين، ومداواة المرضى، وتنظيف البيئة، وصيانة طرق المدينة والأرصفة. وإن ما قدمته مؤسسات البلدية اليوم من خدمات متعددة قد قامت بها بروح المجتمع المدني وبدون مقابل[2].

وكما يُرى، فإنه على الرغم من أن الوقف قد ظهر بهدف القضاء على الفقر،إلا أنه احتل بعد ذلك مكانة في جميع مناحي الحياة، وتطور على الأخص في العهد العثماني ليصبح أسلوب حياة يهتم بالفرد والجماعة على حد سواء [3].

أما نوع الوقف الذي كان أكثر جذبًا للانتباه فيما يتصل، بموضوعنا، فهو ذاك الوقف الذي تأسس بهدف حماية الحيوانات. وقد انقسم هذا الوقف إلى قسمين. أولهما: الوقف المؤقت أو العارض. وهذا النوع هو أكثر أوقاف الحيوانات انتشارًا. وفيه يتم اقتطاع مبلغ من المال من الأشخاص المحبين للخير وتوزيعه على الجزارين أو الخبازين أو من يحل محلهم في أداء

(١)جان لويس ميشون: المؤسسات الدينية، ص٣٤ .

(٢) أوزتورك: ص٤٤.

(٣) أوزتورك: ص١٩.

وظيفتهم، ومن هذا المال يتم يوميًا إطعام القطط والكلاب التي ليس لها مالك، أو يقوم الشخص بنفسه بشراء اللحم والخبز وإشباع هذه الحيوانات.

ويُرى أن العثمانيين لم يكتفوا بتأسيس الوقف لرعاية وإطعام الحيوانات وحسب، وإنما قاموا أيضًا بإنشاء مستشفيات خاصة لمداواة الحيوانات عند مرضها.

أما المحامي الفرنسي (جوير) الذي تجول في أرجاء الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، فقد بحث عن وجود مستشفى خاص لمعالجة القطط والكلاب المريضة في الشام[١]. وتُعد واحدة من أجمل التعليقات التي تلخص علاقة الإنسان بالبيئة ما ورد في مذكرات الشاعر الشهير (لامارتين) في أساس رصده للمجتمع العثماني حينما قال بأن "... جميع المخلوقات حيةً وغير حيةً يتعايشون جيدًا مع بعضهم. إنهم يحترمون الشجر والطيور والكلاب وسائر ما فطر الله من مخلوقات، فرحمتهم تشمل جميع أجناس تلك الحيوانات المسكينة التي نراها وقد تُركت مُشردة أو يتم الإضرار بها في بلادنا. ففي جميع الشوارع يتم وضع صفوف من أواني المياه بمسافات واضحة "مُعينة" بالحي من أجل الكلاب. وعندما كان بعض الأتراك يشرفون على الموت، فإنهم كانوا يقومون بإنشاء الأوقاف من أجل الحمام الذي كانوا يربونه طوال عمرهم، وبذلك يؤمنون نثر الطعام " لهذه الحيوانات" بعد وفاتهم[٢].

أما النقطة الأخرى التي لفتت الانتباه، فتتمثل في أن القرارات البيئية ذات الصلة بالوقف قد أحيت وأنعشت الآثار المعمارية، حيث كان الشكل

---

(١)إسماعيل حامي دانشمند: الأخلاق والسجية التركية القديمة طبقًا للمصادر الغربية. ,Istanbul Kitapevi. ١٩٦١. ١٠٦. وبالنسبة إلى المعلومات المتعلقة بأوقاف دار شفاء الحيوان في الشام فقد أعطى الأستاذ الدكتو/ مصطفى سباعى داطاى لى معلومات عنها. انظر: أ.د. عصمت صونكَور بك: حقوق الحيوان. منشورات جامعة إستانبول. ١٩٩٣. إستانبول. ١١٧-١١٨

(٢)دانشمند: ص٢٥٩.

المعماري في إطار يتناسب ويتلائم مع البيئة المحيطة[١]. فإذا ما أمعنا النظر في أبنية الوقف العثمانية، لوجدنا أن الطيور النفيسة والجميلة التي في أطرها قد زينت تلك الأبنية كتاج جميل وظريف.

وعلى ذلك، فقد تحقق تناغم بين البيئة و الطبيعة بتلك الآثار المعمارية، حيث كان الهدف هو استمرار الحياة الهادئة المتوازنة للبشر الذين يعيشون في تلك الأبنية. وعلى سبيل المثال، كان المرضى في عهد كل من السلطان (مراد الثاني) والسلطان (محمد الفاتح) يُعالجون في مستشفى (دار الشفاء) ومصحة الأمراض النفسية اللتين شيدتا في أدرنة بالموسيقى الكلاسيكية، وأصوات الناي, وتلاوة القرآن بصوت جميل، داخل حدائق الورد ذات الروائح الجميلة، والأزهار الرائعة، وتغريد البلابل، وأصوات المياه الجارية[٢].

انطباعات الرحالة الغربيين:

لقد جاء إلى الدولة العثمانية أفضل المشاهدين والمراقبين من السياح الغربيين للإطلاع على النظرة العالمية والنظم القيمة المتعلقة بالبيئة في الدولة العثمانية، والذين "جاءوا إلى البلاد العثمانية لعدة أسباب، ومن ثم أقاموا فيها، ووجدوها فرصة للإطلاع عن كثب على الحياة الاجتماعية العثمانية"[٣]. وطبقًا لهؤلاء السائحين: فإن الاغتيال والقتل العمد، والسرقة، وقطع الطريق، والسُكر،

---

(١)للحصول على أثر هام بقدر كاف وله صلة بالموضوع، انظر: بشير آيواز أوغلي: حجر من حدائق الفاكهة. على مصادرها. .Yeni Turkiye, العدد الخامس. ١٩٩٥. ص٤٥-٥١.

(٢)م. سرحان طايشي: إحساس التاريخ والبيئة. (الإنسان والبئة). إستانبول. Insanliga Hizmet Vakfi Yayinlari,. ١٩٩٢. ص٤٠.

(٣)أ. م. د. حسين جليك: النظافة تبدأ من الطبيعة. .TDV Yayinlari, أنقره. ١٩٩٥. ص٢٩.

والفوضى قليلة جدًا حتى أنها تكاد تكون معدومة في البلاد العثمانية. وفى بعض المدن فإنها لم تُر أيٌّ من هذه الجرائم مطلقًا، وكان السبب في ذلك يرجع إلى تطبيق الجزاء الرادع والعدالة حرفيًا، وإلى أن الشعب الذي تربى على القيم الدينية الرفيعة لم يكن ليتسامح مع مثل تلك الجرائم[1].

وهناك رحالة آخر يذكر بغض الإنسان العثماني للإسراف، وأوضح أنهم (لا يأكلون أكثر من حاجاتهم)، وهم يحبون للغاية رياضات وألعاب رمي الجريد (المزراق)، والفروسية، ورمي السهام، والسباحة، والمصارعة. وأنهم لم يعرفوا قط أمراضًا اجتماعية من مثل: تناول الخمر، وتعاطي الأفيون، والحشيش، والمبارزة، والزنا ، والسرقة، والتزييف، والتلصص، والغيبة[2].

وفى مشاهداته التي دونها بشكل جميل للغاية، أوضح (رُجات)- الذي تولى منصب السكرتارية في السفارة الإنجليزية بإستانبول- المحتوى الحضري للأوقاف التي ذُكرت سالفًا. وذكر (رُجات) "إلى أي حد كان الإنسان العثماني يعطي للحيوانات حقها وكيف كان يحترمها ومدى اهتمامه بتربيتها وحمايتها، مذكرًا بأن أكبر دليل على ذلك هو الأوقاف الخاصة التي أُسست من أجل الحيوانات.

وتابع كلامه بقوله إنه " قد جرت العادة بإنشاء أوقاف خاصة بالحيوانات وليس مجرد القطط والكلاب فضلًا عن الإنسان، والقيام بإطعام وإشباع فقراء الشعب في بيوت الطعام التي كانت تُقام من أجلهم، وكذلك إطعام الحيوانات مثل القطط والكلاب فضلًا عن الإنسان، ويقول: أكثر من ذلك أنه كانت هنالك بيوت أُقيمت خصيصًا من أجل القطط، وكان يتم تخصيص أجرة ورسوم مالية

(١) دانشمند، ص٣.

(٢)دانشمند، ص٧٥-٨٧.

وخدام لخدمة القطط، ويوضح أن مثل تلك الأشياء سيكون شيئًا مضحكًا للغربيين[١].

ولو أُخذ في الاعتبار أن الإنسان الغربي بتأثير من الثقافة المسيحية وخاصة المتأثرين بالفلسفة (الديكارتية) لا يُقيمون الحيوانات على أنها كائن حي، فإذا تطور هذا المفهوم القاسي والمختلف تمامًا ليس بالإمكان سوى أن نعطى الكاتب حقًا فيما ذهب إليه[٢].

ولعل ما رآه الرحالة الغربيين في الأراضي العثمانية في القرن التاسع عشر توضح أن محبة ورحمة الإنسان بالحيوان كانت غريبة جدًا حتى أنها تطورت إلى حد أنها أصبحت فوق المعتاد.

فأحد هؤلاء الرحالة لم يستطع أن يخفي إعجابه فيذكر أن "إحسان العثمانيين وصدقاتهم شمل حتى الحيوانات"، ويتابع حديثه قائلًا:" حتى أنه لم يقدر على إيذائهم أحد". و إذا حدث ووضع صاحب فرس أو بغلة أو حتى جمل عليه حملًا زائدًا عن الحد فللمسئول عن الشرطة الحق في منعه من هذا

---

(١)دانشمند: ص١٤٢.

(٢)للحصول على معلومات خاصة بالأدبيات التي تتعلق بمفهوم العالم في الفلسفة الديكارتية ومفهوم الحيوان الخاص بها، انظر: -C. Donting, A Green History of the World, Penguin Books, London, ١٩٩١.

وبشكل خاص الجزء الثامن والجزء التاسع)، وأيضا: -J. Black, The Dominion of Man, Edinburg, ١٩٧٠; J. Passmore, Man's Responsibility for Nature, New York, ١٩٧٤

وانظر أيضًا: Laberthonniere: بحوث حول الديكارتية. ترجمة: محمد قره صان. وزارة الثقافة. الطبعة الثانية. أنقره. ١٩٧٧. ص١٧٩. وللرجوع إلى مصدر كلاسيكى حول نظرة العالم الآلية وذراع الماكينة، انظر:: Lewis Mumford, خرافة الماكينة. ترجمة: فرات أورروج. إستانبول. Insan yayinlari, ١٩٩٦.

وكذلك، -E. J., Dijksterhuis, The Mechanization of the World picture, London: Oxford University Press, ١٩٦١.

الظلم وإجباره على إراحة الحيوان المجهد. وكان من الممكن مصادفة مثل هذه الأحداث يوميًا[1].

وهناك رحالة آخر يذكر أن الأتراك كانوا يخصصون جزءًا من المال في وصاياهم للإنفاق على الكلاب، وكانوا في حال قوتهم وصحتهم يقومون بأنفسهم بإعطاء مبلغ مالي معين كل شهر أو كل أسبوع إلى الجزارين أو الخبازين لإطعام الكلاب، كما ذكر أن الحرفيين القائمين على مثل هذه الأعمال لم يكن من الممكن لهم بحال من الأحوال أن يوجهوا تلك الأموال لأغراض أخرى كي لا يضعوا أنفسهم موضع الشك والريبة[2].

ويُعد الطبيب الفرنسى (ا. براير) واحدًا من أفضل الذين صوروا بدقة حماية المجتمع العثماني للأشجار والمناطق الخضراء. وبعد أن ينقل لنا الطبيب حكاية عن مريض مسيحي لم يجرؤ على قطع شجرة من حديقته الخاصة متجنبًا رد فعل جيرانه المسلمين، فإن الطبيب يؤكد ما يلي: " ونتيجة للتقديس الذي يبديه الأتراك المسلمين لنتاج هذه الطبيعة الجميلة التي استمتعوا بظلالها على مدى العصور، توجد في تركيا أشجار دلب يصل قطرها إلى ستة أوثمانية أقدام، بل عشرة أقدام، وفى بعض الأحيان تؤمن تلك الشهرة واللطافة في اخضرارها وتبعث شيئًا من الغيظ على المنزل تاركة إياه بلا هواء أو ضياء [3].

وفى الواقع يوجد مجال آخر يمكننا فيه أن نلحظ وجهة نظر العثماني فيما يتعلق بالبيئة، وهو المنمنمات والتذهيب. وإذا ما دُرست تلك المنمنمات بدقة، يُرى أنها صُممت لتعبر عن ما في خيال الإنسان من صور الأشجار والطيور والزهور والحيوانات، والسماء شديدة الزرقة، والمروج الخضراء، والجبال

---

(١) دانشمند: ص١٤٨.

(٢)دانشمند: ص١٤٥.

(٣) دانشمند: ص٨٢.

المكسوة بالزهور، والأنهار الجارية شديدة الزرقة، كما أنها تمثل في الغالب رياض (إرم) من الجنة.

أيضًا إذا ما أُمعن النظر في صور الإنسان الموجودة في هذه المنمنمات، يلاحظ أن هؤلاء يمسكون في يدهم اليسرى منديلًا ناصع البياض يرمز إلى النظافة الإسلامية وطهرها ورقتها، أما في يدهم اليسرى فتوجد وردة ذات برعم نرمز إلى التوافق والتوازن بين الإنسان والبيئة. وهذه اللوحة تبين لنا بشكل مثالي وواضح للغاية أن الإنسان في ظل الحضارة الثقافية العثمانية كان كلًا واحدًا ومتحدًا مع بيئته [1].

وفى عام ١٦٦٥ قدم (جان تيوانوت) إلى إستانبول ومكث فيها تسعة أشهر، وله ملاحظات كثيرة تتعلق بموضوعنا. إحداها تتعلق بالحمامات التركية والأهمية التي يوليها الأتراك للنظافة. ففي رأيه: "أن الأتراك يذهبون بكثرة إلى الحمام من أجل تنظيف أجسادهم وكذلك من أجل صحتهم. ولهذا السبب يوجد في المدن كثير من الحمامات الجميلة [2].

وطبقا لتيوانوت فإن "كون الأتراك يتمتعون بالصحة ينبع من الحمامات التي يذهبون إليها بكثرة، ومن المقاييس التي وضعوها في مسألة الأكل والشرب [3].

إن الكاتب الذي بحث في الأهمية الكبيرة التي أولاها الأتراك للنظافة، يوضح أن الصلاة والاغتسال والوضوء من الأسباب الأساسية لهذا الاهتمام. وفى حين يقول غربي آخر: " في الحقيقة إن الأتراك شديدو النظافة في نمط حياتهم وهم أيضًا يتصرفون بحرص شديد بخصوص النظافة والعبادة"، فإنه

---

(١)طايشى: ص٤٠.

(٢)جان تيوانوت: تركيا فيما بين عامى ١٦٦٥- ١٦٥٧. ترجمة: نوراى بيلديز. Temel ١٠٠١ Tercuman Eser. رقم ١٢٠. ١٩٧٨، ص٨٥.

(٣)المصدر السابق، ص٩٩.

يؤكد على أنه" مثلما يقوم الماء الذي يستخدمونه في غسل أجسادهم بعملية النظافة من جهة، فإنهم يؤمنون بأنه يزيل ذنوبهم من جهة أخرى" [(١)].

وبعد أن أوضح (مورادجيا دي أوهسون)أن "نظافة الجسد والثياب تمثل فضيلة ضرورية بالنسبة للمسلمين والمسلمات"، فقد نبه إلى البعدين الميتافيزيقي والديني لهذا المفهوم بقوله:" ليس من الخطأ الحكم بأن الدين والأحكام الدينية التي تقوى قوانين الطبيعة، قد علمت المسلمين أن يولوا اهتمامًا كبيرًا بشأن نظافة الجسم" [(٢)].

أما (ديفيد أور كهارت) الكاتب الصحفي الإنجليزي فهو غربي آخر أُعجب بمفهوم النظافة عند الإنسان العثماني. وهذا الكاتب الذي قام بعمل أبحاث كثيرة عن تركيا والأتراك قال في كتابه "الحمام التركي": إن العثمانيين تعلموا الحمام من الرومان، إلا أنهم غيروه وأكسبوه هوية جديدة؛ بحيث إنهم "ساووا بين النظافة والحمام". كما أنه يقول: لقد أعجب الأتراك بالحمام بمجرد أن رأوه؛ وجعلوا منه مؤسسة لا يمكن للمجتمع والأفراد الاستغناء عنه. (...) وبعد أن أخذوا الحمام، خلصوه من أي سوء للأخلاق ومن الابتذال، وجعلوا فن النظافة في أفضل موقع. (...) وفى حين كان الرومان يدخلون الحمام متجردين من ثيابهم مثلما ولدتهم أمهاتهم، اخترع المسلمون زيًّا وملابس للحمام" [(٣)].

---

(١) ريجوات: الدساتير السياسية للأتراك. إعداد:م. رشاد أوزمان. إستانبول. ١٠٠١ **Tercuman Temel Eser**. رقم ٨١، ص٢٤٥. (بتصرف).

(٢) مورادجيادي أوهسون: العادات والأعراف في تركيا في القرن الثامن عشر. ترجمة: زرهان يوكسل. إستانبول. ١٧١ (دون تاريخ).

(٣)حسين جليكـــ: المصدر السابق، ٢١، ٢٣.

وختامًا

يُلاحظ أن المجتمع العثماني المسلم الذي شكلت القيم الإسلامية تصوره للعالم وشكلت حياته اليومية، قد طور مفهومًا يقوم على الحب والاحترام لكل من الإنسان وكذلك لكافة المخلوقات الأخرى.

وكنتيجة لهذا الفهم، فإنه على حين قام بتطوير علاقات إيجابية مع الأشخاص المنتسبين لدين مختلف ولغة مختلفة وعرق مختلف وثقافة مختلفة، فإنه قام أيضًا بتطوير فهم وأسلوب تعامل يعتمد على الحب والرحمة والأمانة مع البيئة الطبيعية.

وعند التدقيق في الأساس الذي يعتمد عليه هذا الفهم، يتبين أن الأصل هو الرؤية الإسلامية العالمية المميزة إلى جانب العناصر الأخرى. إن المعطيات الموجودة والتي استطعنا الوصول إليها تدل على أن هذه القيم الأساسية والمتميزة نفذت في كل طبقات المجتمع حيث تمسك بها السلطان وكذلك الشعب. ومع هذا، فإن أولئك الذين لا يتصرفون وفقًا لهذه القيم والذين يسببون ضررًا بالبيئة، فيُرى أن تتم مواجهتهم. بمواد قانونية أوجدتها هذه القيم أيضًا.

أما الساحة الأخرى البارزة في موضوع علاقة الإنسان بالبيئة في المجتمع العثماني فهي الأوقاف. وسبب هذا ليس الأحكام المتعلقة بالبيئة والحيوانات الموجودة في الوقفيات وحسب. فما يفوق هذه الأحكام أهمية هو البعد المدني لنظام الوقف من جهة، ومن جهة أخرى إطلاق سبيل الحبس عند ولع أو هوس شخص ما بالانحراف أو زيادة الاستهلاك.

وكنتيجة لهذا فإن الأفراد المسلمين لا يترددون في بذل أموالهم وإمكانياتهم بنفس راضية سواء على بني جنسهم أو على كل المخلوقات "التي يحبونها حبًا

في الخالق". ويفهم من الوقفيات التي تركوها أنهم استلهموا هذا من الآية رقم ٩٢ من سورة آل عمران والآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة. ومن هنا يمكن القول إن التكافل خاصية مميزة للفرد العثماني، أي أنه تطور لشكل علاقة تقوم على الحب والرحمة والمسئولية تجاه أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه معًا وتجاه جميع الكائنات الحية.

البيئـــــة

عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي

مدخل:

المقصود من هذا المبحث هو الإشارة إلى الخصوصيات الأساسية لمفهوم "أو فلسفة" البيئة عند سعيد النورسي، وبذلك، نقدم أيضًا نموذجًا ماثلًا للعيان لموضوع: نحو فهم عصري للقرآن.

فمن الملاحظ أن سعيد النورسي يمتاز على علماء الإسلام المعاصرين باعتنائه بنظرة القرآن إلى الكائنات، ويعنى بالجانب الكوني، ويتوقف عند هذه المعاني.

قبل الدخول إلى الموضوع علينا أن نحدد المقصود من مفهوم "فلسفة البيئة"، إن تداول مصطلح الفلسفة يعود إلى تقاليد تاريخية قديمة. أما تداول مصطلح "فلسفة البيئة"' فقد تأخر حتى الربع الأخير من القرن العشرين. ولا يوجد اتفاق على ما يعنيه بصورة محدودة، لكنه ينصرف عمومًا إلى تطبيق التعريف العام للفلسفة على البيئة. بعبارة أخرى، البحث في أسباب ظهور المعضلات البيئية، وتفسير البيئة تفسيرًا كليًا، من وجهة فلسفية معينة.

إن فلسفة البيئة هي الجهد المبذول في استحداث تعريف جديد للبيئة والإنسان في السياق المعاصر بالاستفادة من الجهود القديمة التي تمتد حتى إلى العصور القديمة، إذ لا تخلو صفحات التاريخ كله من محاولة تفسير الإنسان والبيئة.

مع بداية تفاقم أزمة البيئة، طرح كثير من المفكرين أسئلة فلسفية عن أسبابها وجذورها، فظهر مصطلح فلسفة البيئة (Environmental – eco philocsophy) والأخلاق البيئية. (Environmental Ethics) ولعل أكثر الأسئلة المطروحة في ساحة فلسفة البيئة هي:

- ما الكائنات والطبيعة؟
- هل للكائنات مغزى ومعنى؟

- ما معنى البعد الجمالي في الكائنات؟
- ماذا يعنى كلية " أو تكامل" الكائنات وانتظامها؟

هل للطبيعة قيمة ذاتية (Interisic value) بمعزل عن الإنسان؟

- ما الإنسان؟
- ما أهمية الإنسان في الكائنات؟
- ما مسئوليتنا إزاء الأجيال القادمة؟

ومن المستغرب فعلًا أن يسعى الإنسان مجددًا إلى استكشاف معنى الكائنات والحياة وإضفاء مغزى لحياته، بعد التطورات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية الضخمة في القرن العشرين.

ومع وجود أسباب علمية تفسر هذا الواقع، فإن السبب المهم هو الروح الإنسانية التي لا تطمئن بالإشباع المادي وحده، كما نستجلي ذلك من تعريف المفكر البيئي سكولومسكي لفلسفة البيئة بأنها: اكتشاف المشروع الإنساني مجددًا لمعنى الإنسانية بحالتها المتفاعلة مع الكائنات [١].

ويعدد هذا الكاتب أيضًا، خصوصيات فلسفة البيئة فيقول:-

- الحياة محورها.
- وتنشدُ إلى قيم الإنسان والطبيعة و الحياة.
- وهى حيوية بحكم المعنى.
- وشمولية وجمعية.
- وحساسة إزاء البيئة.
- وتهدف إلى الحياة الأرقى.
- وتمتلك حساسية سياسية "يعنى أن الشخص الذي لديه وعي بيئي يهتم بكل قرار سياسي يتعلق بالبيئة ويسعى أن يشغل موضعًا في مراحله المتنوعة"

---

(١) Henryk Skolimowsky, Eco-philosophy-Ideas in Progress, "Boston-London: Marion boyars, ١٩٨١", s. ١ .

- وتتخذ من خير المجتمع أساسًا.
- وتؤكد على مسئولية الفرد.
- وتتسامح مع الميتافيزيقية " ما وراء العالم الفيزيائي"
- وتهتم بالصحة [1].

إذا استطلعنا هذه الخصوصيات، يمكننا أن نفترض ظهور المعضلات البيئية بنتيجة القراءة غير الصحيحة وإضفاء معنى غير سليم للطبيعة منذ القرن السابع عشر بناء على الثنائية الكارتيزية. (Cartesizm) وهذا يعني أن مصدر المعضلات التي نواجهها اليوم هو تصرفاتنا الخاطئة الناتجة من إضفاء معنى خاطئ "أو ناقص" للطبيعة.

فالإنسان منذ وجوده قد طوّر أنماطًا معيشية ونماذج سلوكية تنسجم مع المعنى أو المغزى الذي يضفيه على نفسه وعلى الطبيعة.

إن هذه النقطة، مهمة جدًا من أجل فهم البعد الفلسفي لمشكلة البيئة ونوعية علاقة الإنسان المعاصر بالبيئة [2].

---

(١) المصدر السابق ٢٨-٥٢ توجد مصطلحات عديدة متداولة فى إطار مفهوم فلسفة البيئة والخلاصة في تعريف هذا المفهوم هو الاستيعاب العقلي لمشكلات البيئة وإيلاء أهمية خاصة للدور المهم الذى يلعبه المنظور الفلسفي: أو الفلسفة فى حل تلك المشكلات. فلاشك أن الفلسفة عنصر فاعل فى تدقيق الأسباب الحقيقية للمعضلات ثم فى تجديد التوجه الفكري للتغلب عليها. ومن أهم ميزات فلسفة البيئة أيضًا، هو الفهم المستوعب لموضوعه ومشكلاته وحلوله فى إطارها بشكل متكامل.

(٢)المصدر السابق. وانظر للفكر الفلسفي في مشكلات البيئة .

Dr. Ibrahim Ozdemir. The Ethical Dimension of Human Attitude Towards nature, Cevre Bakanligi Yayinlari, Ankara, ١٩٩٧; Neil Evernden, The Natural Alein. Humankind and Environment "Toronto: University of Toronto Press, ١٩٨٥"; Lynn white "The Historical Roots of Our Ecological Crisis", Man and the Environment,"eds" Wes Jackson end Kansas Wesleyan, "Dubuque, Lowa: WM. C . Brown company Publishers, ١٩٧١ "Icinde; Carolyn Merchant, Thu Deathof Nature X Women, Ecology and the Scientific Revolution "San Francisco: Hyper and Row, ١٩٨٠."

وبكلام آخر، توجد علاقة وطيدة بين تصورات الإنسان للعالم وسلوكيته. فهو يشكل المعنى الذي يسبغه على نفسه وعلى بيئته حسب هذه التصورات.

وفي إطار هذا البحث، نحاول أن نبرز آراء سعيد النورسي بشأن البيئة (في أوسع معانيها)، ونشير (بصورة وجيزة) إلى نوعية العلاقة بين الإنسان والطبيعة في ظل هذه الآراء.

ونجد لزامًا أن نوضح شيئًا قبل الخوض في مفهوم سعيد النورسي عن البيئة. أن سعيد النورسي الذي صنف رسائل النور "في ثلاثين ومائة مبحثٍ" يعلم تمامًا بحدود تحدى "العصرنة" للأديان عمومًا وللإسلام خاصة، ويواجه هذا التحدى عن علم ومعرفة ووعى.

وهو موقف يتماثل ويتطابق في الوقت نفسه، مع الانتقادات التي يوجهها الفكر البيئي إلى الفلسفات المعاصرة. (١)

لقد قضى سعيد النورسي حياته كلها في التصدي لتحديات الحضارة الغربية المادية والآلية واللادينية السائدة في عصرنا، وحل المعضلات الناشئة من هذه الحضارة. وهذا ما يجعله مرشدًا وداعية عاملا(٢) لذلك، من الضروري أن نلقي ضوءًا على هاتين النقطتين:

تحديات العصرنة

إن التحديات المعاصرة الموجهة إلى القيم المثالية والمتافيزيقية كافة، وليس إلى الدين وحدة، نابعة من مصدرين رئيسيين، هما:

---

(١) .Prof. Dr. Teoman Durali, Biyoloji Felsefesi, "Ankara: Akcag, ١٩٩٢", s. ١٦٠.

(٢) .Bkz: Prof. Dr. Alparslan Acikgenc, Ilim Anlayisi ve Ilimlerin Siniflandirimas Acisindan Risale-I Nurlar'in Bir Degerlandirmesi "Uluslaraasi Bediuzzamn Sempozyumu-٣, "Istanbul: yeni Asya Yayinlari, ١٩٩٦" s. ٤٨٥-٤٩٠.

أ-التصور المادي الميكانيكي لعالم "فيما يخص الطبيعة" و الذي ينكر القيم المثالية أو ما وراء الطبيعة. "ويشمل التيارات الفلسفية الدائرة في هذا الفلك".

ب-التصور الوجودي الذي ينكر ويستبعد الجانب الديني والمعنوي للقيم الأخلاقية والمعنوية.

ومن المعلوم أن الثنائية الكارتيزمية تقبع خلف النهضة العلمية في القرن السابع عشر. لذلك حصل انفصام في تصور الكائنات لأول مرة إلى مادة وروح بعدما كان ينظر إليها كلا متكاملًا حيًا.

وقد بلغ هذا الفهم العصري ذروة التطرف حين ركز على ما هو مادة أو مادى، واستنكر ما هو روحي ومعنوي. وفى البداية سرت قناعة بأن قدرة العلم تتحدد بالشيئية "بالمادة"، ثم تفشت بعد (لوك Licke) إلى اعتبار كل علم خارج الشيئية "المادة" ثانويًا ومن محصولات الخيال[1].

من جهة أخرى، رفضت الفلسفة التجريبية المعاصرة كل ما هو غير مادي باعتباره غير معقول وتصورات لا يعتد بها.

---

(١)لاشك أن وايتهيد "A N. Whitehead" واحد من أحسن المفكرين المعاصرين الذين فهموا موضوعة لوك "Locke" وما تحتويه من نتائج ومن خيرة الذين انتقدوها. وانظر.

A.N. Whitehead, Science and the Modern world, "Cambridge: University press; New York: Macmillan company, ١٩٢٦", s. ٧٩-٨٠.

وانظر أيضًا لتفسير ونقد جديدين لموضوعة لوك

David Ray Griffin, God and religion in the Postmodern World. Essays in Postmodern Theology.
"Albany: SUNY Press, ١٩٨٩", s. ١٦-١٧.

يقول الأستاذ الدكتور تيومن دورالي: بنى العلم المعاصر أساسه على المادة التي عرفها بما له وجود في حيز مكاني وزماني معين ويخضع للرصد والمشاهدة ويمتلك كتلة وأبعادًا[١].

أما التصور الثاني، فهو الفلسفة الحديثة القائمة على وجود الطبيعة مصادفة، وتتمادى إلى اعتبار الصدفة والاعتباط "العبثية"[٢] أهم دعائم الحياة.

ونحن نعرف أن فلاسفة وجوديين مثل جاسبرس "K. Jaspers" وكيركجارد "Kierkguard" ومارسيل "G.Marcel" من المؤمنين بالله في تيار الفلسفة الوجودية، لكن الوجوديين الملحدين يظنون أن الميزة الرئيسية لوجود الكائنات هي العبثية والصدفة والاضطرار.

---

(١) يعبر دورالي "Durali". عن التحول الذهنى الذى يخلفه الكارتيزية: "الفيزياء المعاصرة التى اعتمدت المادة أساسًا، استقرت على كفة "Res Extansa" وأزاحت كفة"Res Cogitans". في نقيض كارتز "Descarters"القائم على هذين الجانبين المتضادين والذي قسم عالم الوجود من الجوهر إلى قسمين. هذا التصرف الفيزيائي القاطع، رسم شكل الحياة الفكرية الأوروبية، كذلك نظرها إلى العالم تدريجيا، خصوصًا منذ القرن الثامن عشر. فبدلًا عن العلم الغائي والنوعي الذي يحتوى الفيزياء التقليدية أيضًا، تشكل العلم على خصوصيات الفيزياء الحديثة القائمة على السببية والكيفية والشكلية، جاعلاً ما يقاس ويسبب= =ويكرر كيفيته من الموجودات موضوعه الذى ينصب عليه. "وحصل من ذلك" أن مالا ينضبط بآلات وأجهزة القياس أو بالمشاهدة المعهودة، يعنى كل ما هو غير مادي، صار يوسم بالتخيل أو التوهم أو التحايل اللفظي. أن أخف وصف أطلقتها مادية."Res Cogitans"في مقولاها وادعاءها هو "التصورات"! بصيغة الاستصغار والاستقلال:" انظر المصدر السابق ص١٤٤.

(٢) العبثية متداولة فى ميادين متعددة. لكنها تترادف مع "الوجودية" فى الغالب. لتواتر استعمالها على لسان الفلاسفة الوجوديين كافة. بل أضيف إليها تميز الوجودية بها. يعرف "Paul Foulquire".

الوجودية بـــ"فلسفة العبث" انظر: Yrd. Doc. Dr. Emel Koc, "J.P Sartre ve A. Camus Felsefelerinin Absurd "Sacma" Kavrami Acisindan Degerlendirilmesi", Felsefe Dunyasi, s. ٢٧, Yaz, ١٩٩٨, s. ٥٤.

ولا يرون غاية وقصدًا في الوجود، ولا يعرفون له معنى. جان بول سارتر "Jean Paul Sartre" والبرت كاموس "Albert Camus" اثنان من رءوس أولئك الفلاسفة، حتى أن سارتر سمى روايته الشائعة "بالدوامة" معبرًا عما يشعر به إزاء الفراغ واللامعنى والعبثية في الكون[1].

وبلغ الأمر بـــ "Camus" أنه عكس اللامعنى والعبثية في كل عمل من أعماله وجعل العبثية مبدأ أخلاقيًا ترفض القيم التقليدية والاجتماعية.

فهو يسقط من الاعتبار الدين والقيم الموروثة والاجتماعية، ويعدها عوائق ومصائد للحرية الإنسانية. فهو يرى أن الحرية لازمة لوجودية الإنسان، وعليه أن يتحرك من المبدأ الفوري ومن حيثما وجد، متجردًا عن القيم كافة، ومن محور تحقيق الذات.[2]

---

(١) يدعى سارت بعدم خلق الله تعالى للعالم، وأيضا لا يمكن العالم أن يوجد نفسه، ولا توجد قاعدة للوجود، ولا قدرة لتفسير الوجود. فهذا الوجود الذى لا سبب له لدى سارتر هو عبث. وهو فى الوقت نفسه فضول وزيادة لعدم قيامه بسبب. انظر المصدر السابق ص٥٧. ويردد ذلك على لسان بطل روايته "الدوامة" أو "الغثيان": "كنا مجموعة موجودات تضجر من ذاها وتترعج منها... لا سبب يفسر وجود أحدنا هنا أو هناك. كل منا خجل، وقلق في أعماقه، وفضولي إزاء الآخر. زيادة وفضول هذه هي العلاقة الوحيدة التى يمكن أن أقيمها بين هذه الأشجار، والقضبان الحديدية والأحجار الرملية. وانظر للمشكلات الفلسفية التي خلقتها وجودية سارتر:

Kenan Gursoy, J.P. SartreAteizmi' nin Dogurdugu problemer, "Ankara: ١٩٨٧".

(٢) Albert Camus, the stranger, "New York: Vintage Books, ١٩٩٦

وأيضا لرأيه فى الموضوع وفى العبثية انظر:

The Myth of sisyphaus and Other Essays, trans. J.O'Brain, "New York: Vintage Books, ١٩٦٠", s. ٥, ٢١, ٣٦- ٣٨, ٤٥; The Rebel. An Essay on Man in Revolt, trans. A Bouet, "New York: Vintage Books ١٩٥٦, s. ٢١, ١٠٠- ١٠٣ Ayrica bkz: Glynn, Patrick, "Beyond the Death of god"National review, c. ٤٨ "May ٦ ١٩٩٦", s. ٢٨. وانظر لمقولات ديستويفسكى "Dostoevsky" عن نتائج فلسفة العبث

The Brothers Karamazov, trns. C. Garnett, "NewYork: The Modern library, ١٩٤٢", s. ٢٩٩- ٣٠١. Ayrica yine Camus'un farkli bir degerlendirmesi icin: prof. Dr. Ismail Tunali "Kurtarici Olarak Cagdas Felsefe ve Cagdas Sanat", Turkiye'de ١. Felsefe

إن هذه التصورات تضم في طياتها رفضًا للتعاليم الأخلاقية والقيم الدينية والاجتماعية. ولا يمكن التفكير في المعضلات التي تواجه البشرية والأزمات التي تعصف بها، بمعزل عن مثل هذه التصورات وتياراتها الفلسفية.

يقول روجيه جارودي منتقدًا هذه التصورات: " إن المتنبئين الكذابين للعدمية والعبثية يمحون عقول الشباب بانعدام مغزى الحياة بدلًا عن بذل الجهد في التغلب على هذه الفضوى، فيصورون الكابوس حالة قهرية ولا نهائية"

إن سلب المعنى من الحياة يجعل كل شيء مشروعًا، حتى الجريمة. إننا مستسلمون إلى مظاهر العنف الحيواني عالميًا، جماعات وأفرادًا. [١]

ونتساءل من منطلق حماية البيئة: ماذا تعنى معضلات البيئة للفرد أو المجتمع في ظل أفكار النظام والانسجام والتوازن البيئي في الطبيعة ومبدأ التصارع واكتساح الضعيف[٢] وسيادة المنافع والمصالح الشخصية ومشروعية التضحية بالبشر، بله الطبيعة، من أجل تحقيقها؟ وما حال الأفراد والمجتمعات التي تحكمهم وتسودهم مثل هذه المفاهيم والفرضيات؟ وهل يعقل أن نأمل الاهتمام بالبيئة أو بحقوق الأجيال القادمة أو الأنواع المتعرضة إلى الانقراض والزوال من شخص يظن أن عليه أن يتمتع بلا قيد في هذه الحياة التي لا يبعث

---

mantic Bilim tarihi Sempozyumu Bildirileri, yayina Hz: Kenan Gursoy- Alparslan Acigenci, "Ankara: Ulke yayin Haber, ١٩٩٢" s. ١٣١

(١) Roger Garaudy Islam ve insanligin Gelecegi, ter. Cemal Aydin, "ist: pinar Yayinlari, ١٩٩٠", s.٢٩.

(٢) من الجدير أن نتذكر فى هذا السياق نظرية دارون التى تصور الحياة صراعًا وتؤكد على حق الحياة للأقوى. ولم تكتف النظرية الطبيعية والكون على هذا الغرار، بل صارت مهدًا ترعرت الداروينية الاجتماعية فيها لتحث الدول الغربية القوية على اكتساح الشعوب والدول الضعيفة وإخضاعها. لذلك تعرضت النظرية فى انتقادات شديدة بذاتها، وأيضا باعتبار النتائج الاجتماعية المترتبة عليها. انظر
Firitjof Capra, Turning pint, s. ٤٤-٤٥. David Pepper, roots of Modern Environmentalism, s. ١٠٠٠-١٠٣.

بعدها في الآخرة، وأن معيار الحق والصواب هو القوة، وأن مقصود الحياة الوحيد هو الاستجابة الشرهة لرغبات النفس وحاجاتها اللانهائية؟

إن المفكر والمؤرخ المعاصر أرنولد توينبنى "Toynbee" يرد على مثل هذه الأسئلة ردًا سلبيًا فهو يعتقد أن المبدأ الذي يسود الغرب ويسرى في كافة المجتمعات الحديثة كسريان الوباء هو أن الشهوة العامة للرغبات المادية والتصرفات الأنانية للإنسان المعاصر... تستبيح كل شيء من أجل نفعه الذاتي ولذته النفسية، فيقول:

"البشر المدفوعون بالشهوة المادية ينظرون بمنظار ضيق فيقولون: ليكن الطوفان من بعدي!، وهم يعلمون حقًا بأنهم إذا لم ينجحوا في كبح زمام اندفاعهم الغريزي فسوف يحكمون على أبنائهم بالزوال.

وبدهي أن يحبوا أبناءهم. لكن هذا الحب قد لا يكفى للتضحية بجزء من ثروتهم من أجل ضمان مستقبل أبنائهم.وأظن أن انسياق الأجيال المعاصرة في الدول المتقدمة إلى التضحية السريعة على حساب مصالحها الذاتية بغير الانشداد بهذا الهدف انشدادًا اعتقاديًا وإيمانيا".[1]

في ظل تلك النظريات، ابتعدت المجتمعات المعاصرة عن الدين و القيم المعنوية التقليدية طوال القرن التاسع عشر خاصة، ثم النصف الأول للقرن العشرين.

---

(١) Arnolda Toynbee- Daisaku Ikeda, Cevre ve Din," Ankara: Cevre bakanligi yayinlari, ١٩٩٧", s. ٧٤-٧٥.

وللمفكر الياباني "Ikeda" آراء مشابهة، بل أوسع نطاقًا: "أطلقت الحضارة العلمية– التكنولوجية المعاصرة عنان الطموحات الإنسانية تمامًا– وفى الحقيقة هي بذاتها نتاج الطموحات الغريزية المادية المطلقة العنان–، فإذا لم نتفهم جميعًا هذه الحال، ولم نحكم عليها بهذا المنطق، لن نستطيع الحد من تخريب البيئة الطبيعية وربما انقراض بنى البشر أنفسهم " من اختيار الحياة –الترجمة التركية ص٤٢".

إن مقولة نيتشة الوجيزة " مات الإله"! تدل دلالة واضحة على هذه الحالة كما تدل على أن الأوامر الإلهية والقيم المعنوية فقدت فعاليتها لدى "الإنسان المتعصرن"! ومن المشهور أيضًا أن المفكر والروائي الروسى دستوفيكي "الذي عاصر نيتشه" يقول: "إذا كان الإله قد مات! فإن كل شيء مباح وفعل كل شيء مرخص به"![1].

ومن المعلوم كذلك أن هذا المفكر انطلق من هذه النقطة ليصل إلى إثبات الله "سبحانه" وافتقاد معنى الحياة بغير الله وانسياقها إلى الاضطراب والفوضى بدونه، مثلما قصد إلى هذه الغاية في رويته " الجريمة و العقاب".

لقد أشار سعيد النورسي منذ ريعان شبابه إلى أن الخلاص من العبثية واللاغائية منطق الشرعية المطلقة للقوة هو معرفة الله: "إن معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان، تجاه تقلبات الحياة ودواماتها،وتزاحم المصايب وتوالى النكبات".[2] ويقول:

---

(١) من ص ٢٨٢. فى كتاب آخر لديستيوفيكي يقول بشأن العلاقة بين القيم الأخلاقية ووجود الله:" إذا كان الإله غير موجود، أكون أنا الله "حاش" وإذا كان موجودًا، فكل شيء بإرادته وليس لي مفر من إرادته. وإذا استطعت الخلاص من إرادته، فكل شئ فى إرادتي أنا، وعلى أن أُظهر إرادتي. انظر.
Fyodor Dostevsky, The Possessed, trans. C . Garnet, "New York: E.P. Dutton& Co. Everyman's Library, c.ll. ١٩٣١", s. "New York: The Modern library, ١٩٤٢", s. ٢٩٩-٣٠١.
=لنفس المترجم طبعة نيويورك سنة The Brothers Karamazovوانظر لرأيه عن نتائج الفلسفة العبثية: ١٩٤٢ ص ٢٩٩- ٣٠١ "ملاحظة المترجم: أن مثل هذه الآراء السقيمة تدلنا على جهتين: الأولى: سموق علماء الكلام المسلمين الذين يعدون هذه المسائل ابتدائية. فقد اشبعوا موضوع الإرادة والاختيار والاضطرار بحثًا وتوصلوا إلى نتائج تجعل مثل هذه الافتراضات كليلة وهزيلة. والثانية: قصور فلاسفة العصر الحديث عن اللحاق بما بلغه الفلاسفة المسلمون ومتكلموهم. ولو اختصروا الطريق على أنفسهم بدراسة التراث الإسلامى مليًا ثم عرجوا على معضلاتهم العقلية، لوفروا للإنسانية زمنًا طويلًا تقضيه فى التجربة وتمحيص الاستدلال واكتشاف ما هو مكشوف أصلاً"

(٢) صيقل الإسلام– محاكمات: ١٢٢.

"لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذي أمرُهُ كله حكمة ونظام، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إليها وإلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئا، فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا. وسيشعر بحالات أليمة تذكّر بعذاب جهنم.. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافى روح النظام المتقن القائم في الكون كله".[1]

هكذا كان مصنف رسائل النور سعيد النورسي، يرد على تحديات "العصرنة"،وينبه بإصرار إلى النظام والانسجام والتوازن والجمال في الكائنات التي يسميها "كتاب الكائنات"، بفهم جديد لمعاني القرآن الكريم. منطلقا من إظهار آلاء وجود الله بأسمائه الحسنى. ونجد ذلك شبيهًا بمنهج الغزالي.[2]

إن تنبيه سعيد النورسي إلى الأسماء الحسنى مسألة مهمة. فهو يجعل الإنسان مبصرًا إلى الكائنات بنظر القرآن، ويجدد إيمان المسلم.[3] فيرد لوثات الفلسفة المادية الحديثة وشبهاتها من حيث ما علقت بإيمان المسلم بإثبات وجود الله والآخرة والحشر والنبوة بأسلوب مقنع.

---

(١) نفسه:١٢٢ .

(٢) يبحث الإمام الغزالي في "جواهر القرآن" الذى صنفه بعد "إحياء علوم الدين" فى القرآن ووجود الله تعالى وتجليات أسمائه الحسنى فى الكائنات ويشير إلى ٧٦٣ آية وردت فى السور المكية خاصة ويصفها بقلب القرآن، باعتبارها آيات عامة وشاملة تتعلق بالله والمبدأ والمعاد، وربما تعلقت غيرها بآية أخرى= =أو بسبب خاص. انظر الغزالي: جواهر القرآن الترجمة التركية طبعة سنة ١٩٧١م وإحياء علوم الدين "الترجمة التركية- طبعة إستانبول سنة ١٩٧" حـ٤ ص٧٥٩ "كتاب التفكر" .

(٣) من المعلوم أن الحلم الكبير للعلامة محمد إقبال كان مشروع إحياء الفكر الإسلامى. ومرتكزه قرآني على خلاف الفلاسفة المسلمين الكلاسيكيين. انظر

Muhamed Ikbal, cev: Ahmed Asras, Dini Dusuncenin yeniden insasi " Ist. Birlesik yayincilik"

وانظر أيضًا من أجل مقارنة فكر النورسى بفكر إقبال بحث الدكتور جلال جلالي زادة فى المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسى بإستانبول سنة ١٩٩٥م

حياته تنبض بالحساسية إزاء البيئة:

عند تقصينا آراء سعيد النورسي عن البيئة، وجدنا تعلقه بالبيئة منذ صباه تعلقًا شديدًا، حتى يمكن القول بأن حب الطبيعة نمى وتطور معه بتطوره الفكري فصار أساسًا بنى عليه آراءه كلها. لقد شغف حبًا بالطبيعة وموجوداتها منذ صباه،[1] ورصد الجبال والهضاب والأنهار والعيون والسهول وما فيها من حيوانات في دهشة و استطلاع، وامتلأت نفسه بحبها والشفقة عليها.

ولا تخفى عليه آثار القول الصوفي السائد في الأناضول الشرقية التي نشأ فيها.[2] ويكفى إلقاء نظرة عاجلة على الكتب التي أرخت سيرته ومذكرات طلابه، للدلالة على استطلاعه الغائر للطبيعة ومنذ صباه. فيروى من سيرته في "تللو" أنه أطعم النمل من الطعام الذي يقدمه أهل القرية إليه إعجابًا بحياة النمل الاجتماعية، أيام اعتزاله في " المقام" لحفظ "القاموس المحيط" عن ظهر غيب.

كذلك انتهاره لأحد طلابه أراد قتل حيوان من الزواحف بالقول:

هل أنت الذي أحييته حتى تقتله. ومنع الحارس المرافق له في أثناء تغريبه "نفيه" إلى "بارلا" من إطلاق النار على طائر القبج بقوله: إنها أيام التفريخ!. وكتب في السجن رسالة صغيرة عن "الذباب" متأثرًا بقتلها بالمستحضرات الكيميائية.[3]

ومعروف تعلقه بوشائج الأُنس والألفة بالموجودات التي تحيط به أينما حل وارتحل، ومنها شجرة الدلب أمام بيته في "بارلا".

---

(١) سيرة ذاتية .

(٢) Serif Mardin, Bediuzzaman Said Nursi olayi" ist. illetisim . ١٩٩٢"

(٣) انظر اللمعات: ٤١٠- ٤١٤.

خلاصة القول إنه ارتبط بوشائج الألفة بكل ما في الكائنات والموجودات حوله وطور علاقة مع المخلوقات كلها على أساس الشفقة والرحمة والحكمة.

بعبارة أخرى، طرح سعيد النورسي المسائل الآتية بعدما أقام صرحها على أرضية قرآنية تمامًا:

- ما معنى الكائنات؟.
- من أين جاءت الموجودات وإلى أين تمضى؟
- ما مصدر الجمال والنظام والانسجام والكمال في الكائنات؟.
- ما الإنسان؟
- ما وظيفة الإنسان ومسئوليته؟.

إن لب مشروع النورسي هو الجواب القرآني على مثل هذه المسائل التي لم تبرح الفلسفة تبحث عنها منذ ميلادها. لنلقي نظرة على المسائل الأساسية التي آثارت اهتمامه من خلال هذه الفقرة الواردة في أوائل مصنفاته:

"لما كان بنو آدم كركبٍ وقافلةٍ متسلسلةٍ راحلةٍ من أودية الماضي وبلاده، سافرةٍ في صحراء الوجود والحياة، ذاهبةٍ إلى شواهق الاستقبال، متوجهةٍ إلى جناته، فتهتز بهم المناسبات وتتوجه إليهم الكائنات. كأنه أَرسلَتْ حكومةُ الخِلقة فَنَّ الحكمةِ مستنطقا وسائلًا منهم بـــ"يا بني آدم! من أين ؟ إلى أين؟ ما تصنعون؟ مَنْ سلطانكم؟ مَنْ خطيبكم؟

فبينما المحاورة، إذ قام من بين بني آدم-كأمثاله الأماثل من الرسل أولي العزائم- سيَدُ نوعِ البشر محمّد الهاشمى وقال بلسان القرآن".[1]

---

(١)إشارات الإعجاز: ٢٣.

فهو يسعى إلى تحديد المعالم للنظرة القرآنية إلى الحياة وتعريف الفرد الذي يجسد هذه النظرة. فوضع منظورًا موصولًا بالقرآن الكريم لعالم حي، كما هو في الأديان السماوية والموروثات القديمة، وربط بذلك الوشائج بين الإنسان والكائنات والله تعالى برابطة التوحيد.

البعد الميتافيزيقي للكائنات "ما وراء الطبيعة":

لا يفتأ سعيد النورسي يؤكد على البعد الميتافيزيقي بإصرار حتى يبنى رؤيته للعالم عليه. وخلاصة رأيه أن الكائنات وما فيها من موجودات هي من خلق الله سبحانه.

فهو يؤسس ما يأتي بناء على الآية الكريمة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

أ- أن في كل شيء وجوهًا كثيرة جدًا متوجهة- كالنوافذ- إلى الله سبحانه وتعالى.

ب- أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الأسماء الإلهية.

ج- حقيقة كل شيء تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير من الأسماء.

د- وأن الإتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء.حتى أن علم الحكمة الحقيقي يستند إلى اسم الله "الحكيم" وعلم الطب يستند إلى اسم الله "الشافي" وعلم الهندسة يستند إلى اسم الله " المقدّر".. وهكذا.

هـ- كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه..كما أن حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها إلى الأسماء الإلهية الحسنى.

فهو في النتيجة يشارك الأولياء في رأيهم بأن "حقائق الأشياء الحقيقية هي الأسماء الإلهية، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق"، "الحقائق الحقيقية

للأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق".[١] ويقول انطلاقًا من الآية ١٨/ سورة الحج:

"إن القرآن الحكيم يصرح بأن كل شيء من العرش إلى الفرش، ومن الملك إلى السمك، ومن المجرات إلى الحشرات، ومن السيارات إلى الذرات.. كل منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقدّسه. إلاَ أن عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كلٌ حسب قابلياتها، ومدى نيلها لتجليات الأسماء الحسنى".[٢]

ثم يبين أن في الكائنات مقاصد وغايات مستقلة عن الإنسان، ويحيد بذلك عن نظرية مركزية الإنسان"Anthropocentric" [٣] القائلة بأن مقصود خلق الكائنات هي المحورية الإنسانية.

"نعم، إن لوجود كل شيء غايات، ولحياته أهداف ونتائج، فهي ليست بمنحصرة- كما يتوهم أهل الضلالة- على الغايات والمقاصد التي تتوجه إلى الدنيا أو التي تنحصر في الموجود نفسه، حتى يمكن أن يتسلل إليها العبث وعدم القصد. بل إن غايات وجود كل شيء ومقاصد حياته ثلاثة أقسام:

أولها: وهو أسماها وهو المتوجه إلى صانعه سبحانه وتعالى. أي: عرض دقائق صنع كل شيء وبديع تركيبه أمام أنظار الشاهد الأزلي سبحانه- بما يشبه الاستعراض الرسمي- حيث تكفى لذلك النظر حياة الشيء ولو للحظة واحدة. بل قد يكفيه استعداده لإبراز قواه الكامنة- الشبيهة بنيته- ولّما

---

(١) الكلمات: ٧٤٩ .

(٢) الكلمات: ٤٠٣ .

(٣) Dr. ibrahim Ozdemir, "Cevre Hukukunun Antropocentik Karakteri, Felsefe Dunyasi, Sayi:٢٧, ١٩٩٨,s. ٦٨- ٨٨. =

=وانظر أيضا:

"Antropocentrism". Peter Adam Angeles, dictionary of philosophy, "London: Haber & Row, ١٩٨١": Baird Callicott, "Non- Anthropocentric Value theory and Environmental Ethics", American philosophical quaterly, vol. ٢١. No.٤ October, ١٩٨٤, s. ٢٩٩.

يبرز إلى الوجود. ومثاله: المخلوقات اللطيفة التي تزول بسرعة والبذور التي لم يتسن لها إعطاء ثمارها وأزاهيرها، تفيد هذه الغاية وتعبّر عنها تمامًا، فلا يطرأ عليها عبث ولا انتفاء النفع البتة. أي أن أولى غايات كل شيء هو: إعلانه وإظهاره- بحياته ووجوده- معجزات قدرة صانعة، وآثار صنعته، أمام أنظاره عناية مليكه ذي الجلال.

والقسم الثاني من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه إلى ذوى الشعور أي أن كل شيء بمثابة رسالة ربانية زاخرة بالحقائق، وقصيدة تنضح لطفًا ورقةً وكلمة تفصح عن الحكمة، يعرضها الباري عز وجل أمام أنظار الملائكة والجن و الحيوان والإنسان، ويدعوهم إلى التأمل، أي أن كل شيء هو محل مطالعة وتأمل وعبرة لكل من ينظر إليه من ذوى الشعور.

القسم الثالث من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه إلى ذات نفسه؛ كالتمتع والتلذذ وقضاء الحياة والبقاء فيها بهناء، وغيرها من المقاصد الجزئية".[1]

وبعد أن يبين أن مقصود الكائنات ليس الإنسان وحده، يقدم مثالًا لمقصود خلقها الأول والأصيل:

"نعم! لو نظرت إلى وجوه الموجودات المتوجهة إلى الأسماء الحسنى وإلى عالم الآخرة لرأيت: أن لكل بذرة- وهى معجزة القدرة الإلهية- غايات كبيرة كبر الشجرة.

وإن لكل زهرة- وهى كلمة الحكمة- معاني جمّة بمقدار أزهار الشجر.

(١) الكلمات:٧٩ .

وأن لكل ثمرة- وهى معجزة الصنعة وقصيدة الرحمة- من الحكم ما في الشجرة نفسها. أما من جهة كونها أرزاقًا لنا فهي حكمة واحدة من بين ألوف الحكم، حيث إنها تنهي مهامها، وتوفى مغزاها فتموت وتدفن في معداتنا.

فما دامت هذه الأشياء الفانية تؤتى ثمارها في غير هذا المكان، وتودع هناك صورًا دائمة، وتعبّر عن معانٍ خالدة، وتؤتي أذكارها وتسابيحها الخالدة السرمدية هناك. فالإنسان إذن يصبح إنسانًا حقًا مادام يتأمل وينظر إلى تلك الوجوه المتوجهة نحو الخلود. وعنده يجد سبيلًا من الفاني إلى الباقي".[1]

كذلك، يبين أن الكائنات والموجودات تعكس كالمرايا أسماء الله الحسنى ويؤكد أن هذا المعنى هو معنى قرآني:

"فافهم من هذا: استناد حقائق الأشياء إلى الأسماء الحسنى، بل الحقائق الحقيقية إنما هي تجليات تلك الأسماء. وأن كل شيء بجهات كثيرة وبألسنة كثيرة يذكر صانعه ويسبّحه ويقدّسه.

وافهم من هذا معنىً واحدًا من معاني الآية الكريمة ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وقل: سبحان من اختفى بشدة ظهوره. وافهم سرًا من أسرار خواتيم الآيات وحكمة تكرار أمثال﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

فإن لم تستطع أن تقرأ في زهرة واحدة الأسماء الحسنى وتعجز عن رؤيتها بوضوح، فانظر إلى الجنة وتأمل في الربيع وشاهد سطح الأرض، عند

---

(١) الكلمات: ٩٢ وقد سئل فى هذا المعنى:"لِمَ تورد أغلب الأمثلة من الزهرة و البذرة والثمرة؟ الجواب: لأنها أبدع معجزات القدرة الإلهية وأعجبها وألطفها. ولمـّا عجز أهل الضلالة والطبيعة والفلسفة المادية من قراءة ما خَطه قلم القدر والقدرة فيها من الكتابة الدقيقة، تاهوا وغرقوا فيها، وسقطوا فى مستنقع الطبيعة الآسن" الكلمات: ٩٢.

ذلك يمكنك أن تقرأ بوضوح الأسماء المكتوبة على الجنة وعلى الربيع وعلى سطح الأرض، التي هي أزاهير كبيرة جدًا لرحمة الله الواسعة".[1]

وبعد أن يؤكد أن هذه هي خصوصية النظرة القرآنية، يميز بينها وبين نظرة الفلسفة المعاصرة بخصوصية مهمة هي:

"إن القرآن الكريم، ببياناته القوية النافذة، إنما يمزّق غطاء الأُلفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلاّ أنها عادية مألوفة مع إنها خوارق قدرة بديعة ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوى الشعور، ويُلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحًا كنزًا لا يفنى للعلوم أمام العقول.

أما حكمة الفلسفة، فهي تخفى جميع معجزات القدرة الإلهية وتسترها تحت غطاء الأُلفة والعادة، فتجاوزها دون اكتراث. بل تتجاهلها دون مبالاة بها، فلا تعرض أمام أنظار ذوى الشعور إلا أفرادًا نادرة شذّت عن تناسق الخلقة، وتردّت عن كمال الفطرة السليمة مدّعية أنها نماذج حكمةٍ ذات عبرة".[2]

ومن الضروري في هذا السياق أن نلم بمفهومين يتداولهما سعيد النورسي عندما يتحدث عن الطبيعة لنعلم نوع تصوراته عنها، وهما:

- **المعنى الحرفي**
- **والمعنى الاسمي.**

يرى بديع الزمان في أثناء إشارته إلى الطبيعة والكائنات أن المقصود الأساسي للقرآن غير مباشر وبإفادة أخرى، أن القرآن لا يشرح باسم الكائنات، بل باسم خالقها وصاحبها الله تعالى. فالله تعالى خلق الكائنات، وكل ما فيها من موجودات هي آياته وعلاماته تدل عليه.

---

(١) الكلمات: ٧٥٤.

(٢)الكلمات: ١٥٠.

ونلاحظ أن هذه المفاهيم التي يتداولها كبار المتصوفة،[1] ترد في المصنفات الأولى لسعيد النورسي.

وتتكرر هذه المفاهيم في مصنفات رسائل النور بعد ذلك، لكن بحيوية وتأثير أكبر. لنلق نظرة عليها كما في مصنفاته في المرحلة الأولى. يقول في " المثنوي العربي النوري" الذي صنفه بالعربية في المرحلة التي يسمى فيها بـ"سعيد القديم:"

"إني حصلتُ في أربعين سنة في سفر العمر، وثلاثين سنة في سير العلم: أربع كلمات، وأربع جمل. سيجيء تفصيلها. أشير هنا إلى الإجمال..

أما الكلمة فهي: المعنى الحرفي، والمعنى الاسمي، والنية، والنظر.

أعني: أن النظر إلى ما سواه تعالى، لابد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وأن النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب خطأ.

ففي كل شيء وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الكون. فالتوجه إلى الوجه الكوني لابد أن يكون حرفيًا وعنوانًا للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبته إليه تعالى. مثلا: لابد أن يُرى النعمة مرآةً للإنعام، والوسائطُ والأسبابُ مرايا لتصرف القدرة".[2]

---

(١) انظر من أجل علاقة الطبيعة والإنسان فى التصوف وآراء كبار المتصوفة فى هذا الموضوع:
Annemarie Schimmel. Deciphering the Signs of God: A Phenomenological Approach to islam, "Edinburgh: Edinburgh University Press, ١٩٩٤"; S. Hossein Nasr, Introuction to Islamic Cosmological Doctrines, "London: ١٩٧٨", Sufi Essays, "Albany: SUNY Press, ١٩٩١", Religion and The Order of Natire, "New York, Oxford: Oxford University Press, ١٩٩٦".

(٢) المثنوي العربي النورى: ١٠٥ .

نظرة وقراءة جديدة في المعنى الحرفي:

أرى، أن من وسائل فهم فلسفة البيئة عند سعيد النورسي هو العبور من ثنايا " المعنى الاسمي" و "المعنى الحرفي" فإذا فهمنا أرضية المنطق التي بنى عليها تأصيل هذين المصطلحين، سنتعرف أيضًا على الأصل الذي أقيم عليه المشروع" رسائل النور".

إن هذا التوجه في رسائل النور، جلب انتباه طلاب النور الأوائل. فقد تساءل "رأفت بك"، أحد الطلبة الأوائل، عن "المعنى الاسمي" و"المعنى الحرفي" اللذين يتكرران في مصنفات المرحلة الأولى في "بارلا"، وأجابه النورسي مفصحًا في ثناياه عن منظوره إلى الطبيعة": إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، فأنت ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتضح أمامك حتى تدفعك إلى القول ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بينما يبقى زجاج المرآة أمرًا ثانويًا.

فالنظرة الأولى تمثل " المعنى الاسمي" أي: زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها "معنى حرفي" غير مقصود.

أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى "اسمي" أما الزجاج فمعنى حرفي.

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: ما دل على معنى في نفسه. أما الحرف فهو الذي : دلّ على معنى في غيره.

فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل جميعها حروفًا، أي أنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة- المادية- الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة".[1]

ويوجد جواب مهم آخر فيما يخص موضوعنا. الملاحظ أن النورسي يبدأ في معظم مصنفاته ورسائله ومدوناته بالآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فأسلوب النورسي يجلب الانتباه، بقدر مضمون الجواب:

"كلُّ حرف مجسمٍ من كتاب الكائنات يدل على نفسه بمقدار جرمه ويُظهر ذاته بمقدار صورته، لكن يدل على صانعه بوجوه كثيرة، أفرادًا وتركيبا بدخوله في المركبات. ويُظهر أسماء صانعه ويُنشد في بيانها بمقدار قصيدة طويلة".[2]

سبق أن ذكرنا أن النظر إلى الكائنات ككتاب وقراءتها، برز بشكل أكثر حيوية وتأثيرًا في مرحلته التي يسميها "سعيد الجديد" وخير النموذج لذلك هو اللمعة الثلاثون التي تشرح الأسماء الحسنى:

"إن التجلى الأعظم لاسم" "الحكم" جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأُدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئات الأسطر، تُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسُ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة- بمئات الأوجه- على مصوّرِه وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكونى العظيم هذا وحدها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافًا مضاعفة. إذ بينما يدل الحرفُ الواحد على وجوده ويعبّر عن نفسه بمقدار حرف فإنه يعبّر عن أوصاف كاتبه بمقدار سطر..

---

(١)الملاحق: ٩٠.

(٢) المثنوي العربي النوري: ٤٤ .

نعم! إن سطح الأرض "صحيفة" من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتبًا بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهى تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والإتقان من دون خطأ، كتابة متداخلة، جنبًا إلى جنب، في آن واحد.

والبستان "سطر" من هذه الصحيفة، نشاهد فيه قصائد منظومة وهى تُكتب أمام أعيننا بعدد الأزهار والأشجار والنباتات، كتابةً متداخلة، جنبًا إلى جنب، من دون خطأ.

والشجرة النامية الزاهية أوراقُها، المفتحة أزهارهُا، وقد أوشكت أن تخرج أثمارها من أكمامها، هذه الشجرة "كلمةُ" من ذلك السطر، فهذه الكلمة تمثل فقرة كاملة ذات مغزى تعبّر تعبيرًا بليغًا عن ثنائها وحمدها ودلالتها على "الحكم" ذي الجمال، بعدد أوراقها المنتظمة وأزهارها المزينة وأثمارها الموزونة، حتى لكأن تلك الشجرة المفتحة الأزهار قصيدةُ عصماء تتغنى بالمدح والثناء على آلاء بارئها المصور الجليل.

وكأن "الحكيم" ذا الجلال يريد أن ينظر عباده إلى ما عرضه من بدائع آثاره وعجائب مخلوقاته في معرض الأرض البديع بآلاف من العيون.

وكأن تلك الهدايا الثمينة والأوسمة الغالية والشارات اللطيفة التي منحها الله تعالى لتلك الشجرة قد أعطتها من الشكل الجميل المزيَّن، والهيأة الموزونة المنتظمة، والإبانية الحكيمة البليغة ما يهيؤها للعرض أمام أنظار الملك العظيم في يوم عيده البهيج وعرضه العام للمخلوقات.. في الربيع. الزاهي.. فتنطلق بالشهادة على وجود البارئ المصور، والدلالة على أسمائه الحسنى ألسنة عديدة ووجوهُ كثيرة متداخلة، من كل زهرة من أزهار الشجرة، ومن كل ثمرة من ثمارها.

فمثلًا: إن كل ما هي في الزهرة و الثمرة موزونٌ بميزان دقيق، وذلك الميزان مقدّر وفق تناسق بديع، وذلك التناسق يسير منسجمًا مع تنظيم وموازنة يتجددان، وذلك التنظيم والموازنة يجريان في ثنايا زينة فاخرة وصنعة متقنة، وتلك الزينة والإتقان يظهران بروائح ذات مغزى وبمذاقات ذات حكمة.. وهكذا تشير كل زهرة إلى "الحكيم" ذي الجلال إشاراتٍ، وتدل عليه دلالات، بعدد أزهار تلك الشجرة.

والشجرة التي هي بمنزلة كلمة، وثمارها التي بحكم حروف تلك الكلمة، وبذور الثمر كأنها نقاط تلك الحروف التي تضم فهرسا من الشجرة كاملًا وتحمل خطة أعمالها. هذه الشجرة إذا أخذناها مثالًا وقسنا عليها كتاب الكون الكبير، نرى سطوره وصحائفه قد صارت بتجلي أنوار اسم "الحكيم الحكم" معجزة باهرة، بل غدت كل صحيفة منه،وكل سطر منه، وكل كلمة، وكل حرف، وكل نقطة معجزة تبلغ من العظمة ما لو اجتمعت الأسباب المادية كلها على أن تأتى بمثل تلك النقطة- أي البذرة- أو بنظيرها لا تأتى بمثلها. بل تعجز الأسباب جميعها عجزًا مطلقًا عن مماثلتها".[1]

فنلاحظ أن النورسي يصف الكائنات هنا بصفة "كتاب عظيم" ويكررها مرات عديدة. وأيضًا، تأكيده على النظام والتوازن الذي يثير اهتمام البيئتين فهو يبرهن على وجود الله سبحانه بدليل النظام والتوازن من جهة، ويحث ضمنا على حمايتها، إذ يقول: "ليس في الفطرة إسراف أو عبثية أو عدم الفائدة. الإسراف ضد اسم "الحكيم"، والاقتصاد لزومه ودستوره الأساس "ثم يردف:" أيها الإنسان المبذر...

(١) اللمعات: ٥٢٨-٥٣٠ .

"إن تعقب الصانع الجليل- بمقتضى اسم "الحكيم" لألطف صورة في كل شيء وأقصر طريق وأسهل طراز، وأنفع شكل.. يدل دلالة واضحة على أن الفطرة لا إسراف فيها قط ولا عبث، فما من شيء إلاّ وفيه نفع وجدوى، ومثلما ينافى الإسراف اسم "الحكيم" فالاقتصاد لازمُه ومقتضاه ودستوره الأساس.

فيا أيها المسرف المبذر! اعلم مدى مجانبتك الحقيقة بقعودك عن تطبيق أعظم دستور للكون المبني على الاقتصاد. وتدبّر الآية الكريمة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] لتعلم مدى رسوخ الدستور الواسع الشامل الذي ترشد إليه".[1]

ويرى بديع الزمان النورسي أن السبب الأساس في إيضاحات القرآن الكريم عن الكائنات "استطرادي" وغير مباشر.

فالقرآن الكريم لا يذكر الكائنات لذاتها، بل لدلالتها على الخلق الإلهي وعلى وجوده تعالى"... كل مصنوع هو لسان يسبح بحكمة الصانع، وكل نوع يرفع إصبعه مشيرًا ومستشهدًا..." وكل فرد من الكائنات- التي دخلت إلى المجلس الأعلى القرآني- مكلف بأربع وظائف، نذكر منها الوظيفة الأولى والرابعة لتعلقهما بموضوعنا:

إعلان سلطنة السلطان الأزلي، بالانتظام والاتفاق.

توجيه الأفكار إلى حقائق الأشياء والحث عليها والتنبيه إليها، من حيث إن كل فرد منها نموذج لحقيقة من الحقائق. فمثلًا: أن القَسَم بالإجرام العلوية

---

(١) اللمعات: ٥٣٦ .

والسفلية في القرآن الكريم، إنما هو لتنبيه الغافلين دومًا وحثهم على التفكير. فالقَسَم القرآني قرع العصا لمن غطّ في نوم الغفلة." [١]

فالنورسي يوضح أن الغاية الأساسية من القسم القرآني بالموجودات الذي يتكرر أكثر في السور المكية، هو إيقاظ الإنسان الغافل من غفلته. [٢]

أن هذا المنظور الظاهر في مصنفاته الأولى، شكل الأساس والنوية لمجموعة مصنفاته اللاحقة المسماة "كليات رسائل النور." زيادة على ذلك، تميزت الكليات من جهة باتخاذها القرآن الكريم محورًا لمنظورها، يعني اعتمدت على النص القرآني مباشرة. من جهة أخرى، سايرت خطوط الغزالي والإمام الرباني ومولانا جلال الدين الرومي. [٣]

---

(١) صيقل الإسلام- محاكمات: ٣٠ .

(٢) ننبه إلى مفهوم الغفلة، ونستعين باقتباس من متصوف مشهور. سئل بايزيد البسطامي: ما سنك؟ أجاب: أربع سنوات، فتعجبوا من كلامه فقال: الدنيا منعتني عن أن أرى الله سبعين عامًا. فما رأيته إلا من أربع سنوات. فعنده أن الغفلة عن رؤية الله لا تعد من العيش. ذكره نيكلسون. وقيل أيضًا القرب أدنى مراتب العلم. .

(٣) يوضح النورسي ذلك بقوله في المثنوي العربي النوري:"كان سعيد القديم- قبل حوالي خمسين سنة – لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلكًا ومدخلاً للوصول إلى حقيقة الحقائق، داخلًا في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة. وكان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها- كأكثر أهل الطريقة- بل جهد كل الجهد أولًا لإنقاذ عقله وفكره من بعض الأسقام التى أورثتها إيّاه مداومة النظر فى كتب الفلاسفة.ثم أراد- بعد أن تخلّص من هذه الأسقام- أن يقتدي ببعض عظماء أهل الحقيقة، المتوجهين إلى الحقيقة بالعقل والقلب، فرأى أن لكلٍ من أولئك العظماء خاصيّة جاذبة خاصة به، فحار فى ترجيح بعضهم على بعض.

فخطر على قلب ذلك السعيد القديم المخض بالجروح- ما فى مكتوبات "الإمام الربانى" من أمره له غيبًا:" وحّد القبلة" أي أن الأستاذ الحقيقي هو القرآن ليس إلا وإن توحيد القبلة إنما يكون بأستاذية القرآن فقط فشرع بإرشاد من ذلك الأستاذ القدسي بالسلوك بروحه وقلبه على أغرب وجه، واضطرته نفسه الأمارة بشكوكها وشبهاتها إلى المجاهدة المعنوية والعلمية.

وخلال سلوكه ذلك المسلك ومعاناته فى دفع الشكوك، قطع المقامات، وطالع ما فيها، لا كما، يفعله أهل الاستغراق مع غض الأبصار، بل كما فعله الإمام الغزالي والإمام والإمام الربانى وجلال الدين الرومى، مع

وبعبارة أخرى، يمكن القول إن بديع الزمان طور بعض الأفكار المذكورة في مصنفاته الأولى بأسلوب أدبي وشعر يخاطب الجميع، من أجل مقصود واحد هو: إظهار العلاقة بين الكائنات وبين خالقها، وتوثيق صلة الإنسان بالله تعالى وتعميقها.

"فكل ذرة من الذرات كما أنها تدل على الخالق الحكيم، بوجودها المنفرد، وبصفاتها الخاصة، وبكيفياتها المعينة، فإن هذه الدلالة تتزايد، باعتبار كون الذرة جزءًا من مركبات متداخلة متصاعدة، ومن حيث الإمكانات والاحتمالات

فتح أبصار القلب والروح والعقل، فسار فيها- أى فى المقامات- ورأى ما فيها بتلك الأبصار كلها، منفتحةً من غير غضٍ ولا غمض.

فحمدًا لله على أن وُفّق على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وإرشاده، حتى بيّن برسائل النور التى ألفها "سعيد الجديد" حقيقة: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

النقطة الثانية:

لقد كان فى سياحته وسلوكه ذلك السلوك فى تلك المقامات، ساعيًا بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل فى حماية القلب كالإمام الغزالى والإمام الربانى وجلال الدين الرومى. فبادر إلى ضماد جراحات قلبه وروحه، وخلّص نفسه من الوساوس والأوهام. وبخلاصة منها انقلب سعيد القديم إلى سعيد الجديد، فألّف بالعربية ما هو بحكم المثنوى الشريف – الذى هو أصلًا بالفارسية–رسائل عدة فى أوجز العبارات. وكلما سنحت له الفرصة أقدم على طبعها، وهى:" قطرة، حباب، حبة، زهرة، ذرة، شمة، شعلة، ودروس أخرى" مع رسالتين بالتركية وهما: لمعات ونقطة. وبيّن ذلك المسلك فى غضون نصف قرن من الزمان فى" رسائل النور" التى لم تقتصر على جهاد النفس والشيطان، بل أصبحت شبيهة بمجموعة كلية واسعة من "المثنوى" تنقذ الحيارى المحتاجين وتنتشل المنساقين إلى الضلالة من أهل الفلسفة". المثنوى العربى النورى:٢٩.

وينتقص النورسى من شأن أفلاطون وأرسطو والفلاسفة المسلمين الذين ساروا على آثارهما مثال الفارابى وابن سينا مع وصفهم بالدهاة فيقول فى الكلمات:

"وإن قلت: فما تكون أنت حتى تنازل هؤلاء المشاهير؟ فهل أصبحت نظير ذبابة حتى تتدخل فى طير الصقور؟وأنا أقول: لما كان لى أستاذ أزلي وهو القرآن العظيم، فلا أرانى مضطرًا أن أبالى- ولو بقدر جناح ذبابة- فى طريق الحقيقة والمعرفة، بأولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبتلى بالأوهام. فمهما كنت أدنى منهم درجة إلاّ أن أستاذهم أدنى بدرجات لا حدّ لها من أستاذى، فبفضل أستاذى وهمته لم تستطع المادةُ التى أغرقتهم أن تبلل قدمى. نعم! إن الجندى البسيط= =الحامل لأوامر سلطان عظيم وقوانينه، يمكنه أن ينجز من الأعمال مالا ينجزه مشير لدى ملك صغير". الكلمات:٦٤٨.

التي تسلكها، إذ لها في كل مركب مقام، وفى كل مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفى كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفى كل موقع مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفى كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفى كل موقع مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفى كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفى كل موقع تحافظ على التوازن العام، وفى كل وظيفة تثمر مصالح شتى وحكمًا عديدة.

في كل مرتبة إذًا تتلو الذرة بلسانها الخاص دلائل وجوب وجود صانعها الجليل وتظهر قصد خالقها الحكيم، وكأنها ترتل الآيات الكريمة الدالة على الوحدانية. مثلها في هذا كمثل الجندي الذي له وظيفة معينة وارتباط خاص مع كل من فصيلة وفرقته والجيش كله.. ألا تكون إذًا البراهين الدالة على الله سبحانه وتعالى أكثر بكثير من عدد ذرات الكون، فما يقال من أن: "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق" إنما هي حقيقة صادقة لا مبالغة فيها قط، بل قد تكون قاصرة.

-سؤال: لماذا لا يرى الجميع بعقولهم الخالق العظيم؟

الجواب: لكمال ظهوره جل وعلا، ولعدم الضد.

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلى فيه النظام بوضوح تام بحيث يُظهر النّظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزة القدرة في كل كلمة أو حرف فيه".[1]

إن إظهار الكائنات كمكتوبات مرسلة من الملأ الأعلى، وقراءتها، والنتائج المستخلصة منها، استنفدت الجزء الأعظم من جهود سعيد النورسي. وأبرزت في الوقت نفسه الصفات الأساسية للإنسان الذي يريده القرآن الكريم.

وإن من أهم النتائج المستحصلة من مطالعة الكائنات كتاب منظور هو:

---

(١) المثنوى العربي النورى: ٤٢٢- ٤٢٣ .

"أن الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطّل العقلُ نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه. والحدس- الذي هو سرعة انتقال في الفهم- يحركّه دائما.

وكذا الإلهام- الذي هو الحدس المضاعف- ينوّره دومًا. والعشق الإلهي يسوقه ويدفعه دومًا إلى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان المغروز في الفطرة. فالانجذاب والجذبة المغروز في الفطرة ليس إلاّ من جاذب حقيقي...." [1]

ومن نتائجها المستحصلة أيضًا: "أن مركز الاستناد الوحيد للعالم هو معرفة الصانع ضد آلاف المصائب والمزاحمين الهاجمة بلا توان في معمعة الحياة التي هي مبدأ الصراع والمزحمات... "فيكون العلم الإيماني الراسخ العمود الفقري للشخصية، والمواقف النفسية المترتبة عليه واقعًا مهمًا لتنظيم حياة الفرد وصموده إزاء كل السلبيات التي يتعرض إليها. [2]

---

(١) المثنوى العربي النورى: ٤٣١ .

(٢) يمكن تسمية مشروع النورسى بتجديد تأسيس الإيمان بالله وحقائقه. وننبه هنا إلى جواب عن نقد موجه إليه لكثرة تأكيده على الإيمان وحقائقه. فيقول:

"يروّج- وبأسلوب رهيب جدًا- قسم من المنافقين الذين تورطوا فى الكفر المطلق- المشحون بالفوضوية والإرهاب- كلامًا من هذا القبيل فيقولون:" لا داعى لنا لمزيد من دروس الإيمان لأن كل أمة بل الناس جميعًا يعرفون الله". وذلك محاولة منهم لصد رسائل النور وحرمان الناس من الحقائق الإيمانية التى فيها، التى يحتاجها الناس كلهم حاجتهم إلى الماء والخبز.

والحال أن "معرفة الله سبحانه" والإيمان بحقائق " لا إله إلاّ الله"، يستلزم التصديق القلبى، والإيمان المطلق الجازم بربوبيته سبحانه وتعالى، الشاملة المحيطة بكل ما فى الكون، وأن مقاليد الأمور- من الذرات إلى المجرات- بجزئياتها وكلياتها فى قبضته سبحانه، ولا تدار إلاّ بقدرته، وتحت إرادته، فلا شريك له فى ملكه.

أما النطق والتفوه بأن "الله موجود" ثم إسناد تصريف الأمور فى ملكه إلى الأسباب التى لا عدّ لها وإلى "الطبيعة" واتخاذها شركاء لله تعالى، ومن ثم الجهل بإرادته النافذة، وعلمه المطلق، ومثول كل شئ بين يديه، فضلًا عن عدم الاهتمام بأوامره ونواهيه، والجهل بصفاته الجليلة، وما أرسل من رسله.. لاشك أن

إن الموقف الفلسفي المناقض لما ذكر آنفًا، يعنى المنظور المادي والميكانيكي والإلحادي للكون، و الذي يستبعد الله تعالى والأفكار المثالية من تفسيره، هو ما قضى سعيد النورسي حياته كلها محاربًا إياه ومجاهدًا ضده بلا توان أو فتور.

٨فهو يسرد أفكاره عن الأسماء الحسنى انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه:٨] باعتبار فهمها فهمًا متكاملًا وكليًا، وليس فهما تجزيئيًا أو انتخابيًا، من أجل الوصول إلى نتائج سليمة واستيعاب معنى الربوبية بيسر. فيؤكد على "أن من يرى آثار اسم" القادر و " الخالق"، ولا يرى آثار اسم "العليم" قد يقع في الغفلة وضلالة الطبيعة... "لذا عليه أن يجول بنظره فيما حوله ويرى أن **الله** هو هو، ويشاهد تجليه في كل شيء. وأن تسمع أذنه من كل شيء:" **قل هو الله** أحد" وينصت إليه. وأن يردد لسانه دائمًا: لا إله إلاّ **الله** ويعلن " **لا إله إلاَ هُو** بَرَابَرْ ميزَنَدْ عَالَمْ". وهكذا يشير القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ إلى الحقائق التي ذكرناها".[1]

هذا كله ليس من الإيمان فى شئ. ولا ينطق بهذا ناطق إلاّ ليسلّى به نفسه وينجيها من التعذيب الدنيوى الروحى الذى يعذّب به الكفر المطلق أصحابه فى الدنيا قبل الآخرة.

نعم إن "عدم الإنكار" شئ و "الإيمان" شئ آخر تمامًا، إذ ما من ذى حس أو شعور يمكنه أن ينكر الخالق ذا الجلال الذى تشهد بربوبيته وعظمته وحكمته وجماله جميع أجزاء الكون.. فلو حاول الإنكار لحال دونه الكون بأجمعه، فيخرس، ويبقى وحيدًا سائبًا معزولًا شاردًا دون سند.أما الإيمان، فلقد علّمنا القرآن الكريم أنه: التصديق القلبى بوجود الخالق جل وعلا بصفاته المقدسة وبأسمائه الحسنى، مستندًا إلى شهادة الكون جميعًا.

أنه– أى الإيمان– تطبيق لما جاء به الرسل الكرام– عليهم السلام، من أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه.. وإذا سوّلت للإنسان نفسه أمرًا، فدونه باب الاستغفار والأنابة.. أما أن يقترف كبيرة من الكبائر بلا اهتمام ولا مبالاة بالأوامر، ودون استغفار وإنابة، فلا شك أن ذلك دليل خلوه من الإيمان". الملاحق: ٢٩٥.

(١) الكلمات: ٣٧٧ .

فإن كنت تريد أن تشاهد تلك الحقائق الرفيعة عن قرب، فاذهب إلى بحرٍ هائج، وإلى أرضٍ مهتزة بالزلازل، واسألهما: ما تقولان؟ ستسمع حتمًا أنهما يناديان: يا جليل.. يا جليل.. يا عزيز.. يا جبار.

ثم اذهب إلى الفراخ والصغار من الحيوانات، التي تعيش في البحر أو على الأرض، والتى تُربى في منتهى الشفقة والرحمة، واسألها: ما تقولين؟ لابد أنها تترنم: يا جميل.. يا جميل.. يا رحيم.. يا رحيم.

ثم انصت إلى السماء كيف تنادى: يا جليل ذو الجمال! واعر سمعك إلى الأرض كيف تردد: يا جميل ذو الجلال. وتصنّت للحيوانات كيف تقول: يا رحمن يا رزاق. واسأل الربيع، فستسمع منه: يا حنان يا رحمن يا رحيم يا كريم يا لطيف يا عطوف يا مصوّر يا منوّر يا محسن يا مزيّن..وأمثالها من الأسماء الكثيرة.

واسأل إنسانًا هو حقًّا إنسان وشاهد كيف يقرأ جميع الأسماء الحسنى، فهي مكتوبةٌ على جبهته، حتى إذا أنعمت النظر ستقرؤها أنت بنفسك.

وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها ينتج لحنًا لطيفًا مهيبًا".[1]

---

(١) نلاحظ ذلك حتى فى دعواته ومناجاته:

"فسبحان من جعل حديقة أرضية مشْهَر صنعته، مَحْشَر فطرتَه، مَظْهَر قُدرته، مدار حكمته، مَزْهَر رحمته، مَزْرَع جنته، ممرَّ المخلوقات، مسَيل الموجودات، مكيل المصنوعات .

فمُزَيَّنُ الحيوانات، مُنَقّشُ الطيورات، مثمَّرُ الشجرات، مزهَّرُ النباتات؛ معجزاتُ عِلمه، خوارقُ صُنعه، هدايا جُوده، براهينُ لطفه.

تبسُّمُ الأزهارِ من زينةِ الأثمار، تسجُّعُ الأطيارِ فى نَسمةُ الأسحار، هَزّجُ الأمطارِ على خدودِ الأزهار، ترحُّمُ الوالدات على الأطفالِ الصغارِ.. تعرُّفُ ودودٍ، تودّد رحمن، ترحُّم حنّان، تحنن منّان، للجن والإنسان، والروح والحيوان والملك والجان". الكلمات:٧٣٢.

ويؤكد سعيد النورسي أن كل إنسان يمكنه يقرأ الكائنات بعين كهذه. وما يلزمه لذلك هو اليقظة والانتباه وإنعام النظر في الكائنات بالشكل الذي يلفت إليه القرآن في آيات كثيرة، حتى يقرأ ويرى تجليات الأسماء عليها. (١)

ويستخرج النورسي نتيجة مركبة من تجليات الأسماء الحسنى في الكائنات بأشكال وأنماط وتوضحات وأبعاد متنوعة. فكما تتنوع أنماط وأشكال تجليات الأسماء الحسنى، كذلك يتنوع استيعاب البشر لهذه التجليات حسب نوع المقابلة وزاوية النظر والحال. (٢)

---

(١) هذا المقتطف مهم لبيان تسبيح الحيوانات بلغة مفهومة:

"حتى أنني لاحظت القطط وتأملت فيها، فرأيت أنها بعدما أكلت ولعبت، نامت. فورد إلى ذهني سؤال: لِمَ يُطلق على هذه الحيوانات الشبيهة بالمفترسة، حيوانات مباركة طيبة؟ ثم في الليل اضطجعت لأنام وإذا بقطة من تلك القطط جاءت واستندت إلى مخدي وقربّت فمها إلى أذني، وذكرت الله ذكرا صريحًا باسم: يا رحيم.. يا رحيم.. يا رحيم"وكأنها ردّت ما ورد من الاعتراض والإهانة باسم طائفتها. فورد إلى عقلي: تُرى هل أن هذا الذكر خاص بهذه القطة فقط أم بطائفة القطط عامة؟ وأن استماع ذكرها، هل هو خاص بي ومنحصر لمعترض بغير حق مثلي أم أن كل إنسان يستطيع الاستماع إلى حد لو أعار سمعه إليها؟ وفي الصباح بدأتُ أنصت إلى القطط الأخرى، كانت تكرر الذكر نفسه بدرجات متفاوته وإن لم يكن صريحًا مثل الأولى. إذ في بداية هريرها لا يتميز هذا الذكر ثم يمكن تمييز: يا رحيم.. يا رحيم.. في الهرير، ثم يتحول هريرها كله إلى: يا رحيم نفسه. فتذكر الله ذكرًا حزينًا فصيحًا دون إخراج للحروف حيث تسد فمها وتذكر الله ذكرًا لطيفًا بـــــ: يا رحيم.

ذكرتُ الحادثة نفسها إلى الذين أتوا لزيارتي، وهم بدورهم بدأوا يلاحظون الأمر. ثم قالوا: نسمع الذكر إلى حد ما . الكلمات: ٣٧٧.

(٢) المصدر المذكور سابقًا. نلاحظ إمكانته جمع المفاهيم والقراءات المتنوعة، وتقويمات الطرق والمشارب والمدارس، في مركز معين ضمن موروثات التقاليد الإسلامية بنظرة جمعية وكلية. بعبارة أخرى، ميزة هذه النظرة أنها ليست إقصائية، بل احتوائية وجذبية. مثل هذه النظرة، خاصة مع مراعاة تمثيل سعيد النورسي لسيدنا عيسى عليه السلام، يمكن أن تشكل أرضية حوار بين الأديان والثقافات والحضارات.

معنى الطبيعة:

أورد هنا لمحات من مطالعة النورسي للطبيعة. ولا ننسى أنه يستعمل كلمة "الكائنات" عمومًا، أما كلمة "الطبيعة" فيستعملها لمعان خاصة. فالطبيعة هي:

"قوانين السنن الإلهية" ، وفهارس الصنعة الربانية، والتي يطلق عليها خطأ- وهو خط جسيم- اسم الطبيعة التي يمكن أن تكون شبيهة بصفحة من كراسة " التغيير والتبديل" لقوانين إجراءات القدرة الإلهية وبمثابة لوحة "المحو والإثبات" للقدر الإلهي".[١]

"إن الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون- وهى أمر موهوم ليس له حقيقة- إن كان لابد من إضفاء وجود حقيقي خارجي عليها فإن هذا "الوجود" هو:

"إن الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون- وهى أمر موهوم ليس له حقيقة- إن كان لابد من إضفاء وجود حقيقي خارجي عليها فإن هذا "الوجود" هو:

صنعة صانع ولن يكون صانعًا، وهو نقشُ ولن يكون نقاشًا، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكمًا، وشريعة فطرية ولن يكون شارعًا، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقًا، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطرًا فاعلًا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرًا، ومسطر ولن يكون مصدرًا".[٢]

فالطبيعة بهذه المعاني:" بجميع موجودات من الذرات إلى السيارات تشهد بألسنة متنوعة، وتشير، إلى الصانع ذي الجلال"[٣]

---

(١) اللمعات: ٢٨٠ .

(٢) اللمعات: ٢٨٣ .

(٣) اللمعات: ٢٨١ .

الوشيجة بين الإنسان والكائنات:

لا يحصر سعيد النورسي وظيفة الكائنات في الإشارة إلى الله تعالى.

فكأن الطبيعة تربط الوشائج مع المؤمنين ومع المنكرين، فهي "إذا جاز التعبير" تتعلق بوشيجة الحب مع المؤمنين من المنكرين. علاقة كل موجود في الكائنات – عند النورسي- يتحدد مع عمل الإنسان وتصرفاته. فيقول في إيضاح له للآية ٨ من سورة الملك بأن الكائنات وما فيهن تغضب على أهل الضلالة، لأن كلا منها موكلة بوظائف عالية مهمة، وقائمة بوظيفتها الموكلة إليها كجند من جنود الله، مسبحة تسبيحات ربانية، ثم يهبط بها المنكر بكفره من هذه المقامات السامية إلى إدراك مخلوق جامد وفان وبلا روح ولا معنى"[1]

"يعبّر القرآن الكريم بأسلوب معجز عن غضب الكائنات وتغيّظ عناصر الكون جميعها وتهيّج الموجودات كافة من شر أهل الضلالة، عندما يصف اشتراك السماء والأرض بالهجوم على قوم "نوح عليه السلام" في الطوفان، وعصف الرياح بقوم عاد والصيحة على ثمود، وهيجان الماء على قوم فرعون، ونقمة الأرض على قارون.. عند رفضهم الإيمان حتى أن جهنم"﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٨] وهكذا يبين القرآن الكريم غَضَب الموجودات وحدتها على أهل الضلالة والعصيان ويزجرهم بهذا الأسلوب الإعجازي الفريد".[2]

ويشير إلى أن الكائنات تغضب على المنكرين ولا تحزن على موتهم، في معرض إيضاحه للآية ٢٩ من سورة الدخان ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]

---

(١) اللمعات: ١٣٧.

(٢) اللمعات: ١٢٢ .

"فيا أيها الإنسان المسكين المخلوق لعالم الخلود والمبتلى بهذه الدنيا الفانية! أمعن النظر في الآية الكريمة وانصت إليها: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ وانظر ماذا تفيد..أنها تعلن صراحة أن السماوات والأرض التي لها علاقة بالإنسان لا تبكى على جنازة أهل الضلالة عند موتهم.. أي أنها راضية لفراقهم مرتاحةٌ بموتهم.

وأنها تشير ضمنًا أن السماوات والأرض تبكى على جنازة أهل الهداية عند موتهم، فلا تتحمل فراقَهم، إذّ إن الكائنات جميعًا مرتبطة مع أهل الإيمان، وذات علاقة بهم، وأنها راضيةُ عنهم، ولأنهم يعرفون بالإيمان رب العالمين فيحملون حبًّا للموجودات ويقدرون قيمتها، وليسوا كأولئك الضالين الذين يضمرون العَداء للموجودات ويحقَرونها".[1]

نستخلص من كل ذلك، أن كل مخلوق هو حي وله مغزى ومعنى علاقات متشابكة مع غيره من الموجودات، في الفلسفة البيئية عند سعيد النورسي. فكل موجود من الجمادات أو الأحياء في الكائنات تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبح له وتطيع أوامره وتخضع له. وفى بعض قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم عبرة وعظة من هذه الوجهة.[2]

---

(١) اللمعات:١٣٢ .

(٢) يتناول فى هذا الإطار قصص الأنبياء فى القرآن الكريم مثل امتناع النار من حرق إبراهيم "عليه السلام" وانفلاق البحر أمام موسى "عليه السلام" وإغراقه فرعون،كذا تفجر الماء من ضرب موسى بعصاه، وانشقاق القمر بإشارة من محمد صلى الله عليه وسلم، فيصور الكائنات من ثناياها وحدات حية وشاعرة ومستجيبة لأوامر الله تعالى، وملبية لطلبات أنبياء الله بأمره. انظر الكلمات- الكلمة الأولى.

الطهر والنظافة كقاعدة كونية:

بعدما ذكرنا القاعدة الكلية، نعرج إلى نقاط حول نظافة البيئة. أن بلوغ الحركة البيئية اليوم إلى البعد الفلسفي والميتافيزيقي لمعضلات البيئية، لا ينفى الدور الواضح لنظافة البيئة والعالم.

يؤكد سعيد النورسي مقدمًا على أن لا قذارة أو وساخة أو فضلات أو خلل أو تنافر في الكائنات بالمعنى الحقيقي والشامل. وبتعبير آخر: سيادة مبدأ نظافة الكون. فأين أصل كل هذا الجمال والنظافة الطبيعية التي يعشقها الإنسان ويعبر عن عشقهها حتى بالشعر؟

في شرحه لاسم "القدوس" من ثنايا الآية ٤٨سورة الذاريات يرجع الفطرية والصفاء وحركة التنظيف في الكائنات، إلى أن الكون كله مظهر لتجل أعظم من تجليات اسم "القدوس". فسعيد النورسي يرى أن ما نشاهده من الصفاء والنظافة والنزاهة في الطبيعة، ليست ذاتية، بل من مبدأ كوني، يعنى من تجليات اسم "القدوس":

"إننا لا نكاد نرى في معمل الكون العظيم هذا، وفى دار ضيافة الكرة الأرضية هذه أثرًا للنفايات، كما أنه لا توجد في أية زاوية من زاوياهما مادة غير نافعة، أو غير ضرورية، أو أُلقِيَتْ عبثًا، حتى أن ظهرت مادة كهذه سرعان ما تُرمى في مكائن تحويل بمجرد ظهورها، تُحيلها إلى مادة نظيفة..

فهذا الأمر الدائب يدلنا على:أن الذي يراقب هذا المعمل أنما يراقبه بكل عناية وإتقان، وأن مالكه يأمر بتنظيفه وتنسيقه وتزيينه على الدوام حتى لا يُرى فيه- رغم ضخامته- أثُر للقاذورات والنفايات التي تكون متناسبةً مع كُبر المعمل وضخامته.

فالمراعاة بالتطهير إذن مستمرة، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة مع ضخامة المعمل وسعته، لأن الإنسان الفرد إن لم يستحم ولم يقم بتنظيف غرفته خلال شهر، لضاقت عليه الحياة.. فكيف بنظافة قصر العالم العظيم؟!

إذن فالطُهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهد في قصر العالم البديع هذا ما هو إلا نابع من تنظيف حكيم مستمر، ومن تطهير دقيق دائم..". [1]

ولهذا فإن أمر التنظيف والتطهير الصادر من اسم " القدوس" تستمع إليه جميع الموجودات وتأتمر به:

"فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حظَيا من تجليات اسم الله "القدوس" عليهما، حتى أنه عندما تصدر الأوامر الإلهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها أيضًا أنواع الديدان والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الأوامر التنظيفية حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الأجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف أجنحته دائمًا...

ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الأوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها أيضًا الرياح الهوج والسحاب الثقال، فتلك تطهّر وجه الأرض من النفايات، والأخرى ترش روضتها بالماء الطاهر فتسكّن الغبار والتراب، ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملة أدواتها ليعود الجمالُ الساطع إلى وجه السماء صافيًا متلألئًا.

---

(١) اللمعات: ٥١٧ .

ومثلما تستمع لتلك الأوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف النجوم، والعناصر، والمعادن، والنباتات بأشكالها وأنواعها، تستمع لها الذراتُ جميعًا، حتى أنها تراعى النقاوة والصفاء في دوامات تحولاتها المحيرة للألباب، فلا تجتمع في زاوية ذو فائدة، ولا تزدحم في ركن دون نفع، بل لو تلوثت تُنظَّف فورًا وتُساق سوقًا من لدن قدرة حكيمة إلى أخذ أطهر الأوضاع وأنظفها وأسطعها وأصفاها، وأخذ أجمل الصور وأنقاها وألطفها.

وهكذا فإن فعل التطهير هذا الذي هو فعلُ واحد، ويعبّر عن حقيقة واحدة هو تجلٍ أعظم من تجليات اسم "القدوس" الأعظم، يُرى ذلك التجلي الأعظم حتى في أعظم دوائر الكون وأوسعها، بحيث يبين الوجود الرباني، ويُظهر الوحدانية الإلهية مع أسمائها الحسنى ظهورًا جليًا كالشمس المنيرة، فتبصره العيون النافذة النظر".[1]

أن المعنى الحقيقي للنظافة في الثقافة الإسلامية لا يتأصل إلا بهذا المنظور، حتى تغدو النظافة حقيقة كونية، لا مسألة عارضة أو شخصية.

"نعم، إن هذا التنظيف السامي الشامل المشاهد الذي يجعل قصر العالم طاهرًا نقيًا نظيفًا لهو تجلٍ من تجليات اسم "القدوس" ومقتضى من مقتضياته.

وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعها إلى اسم "القدوس" وترنو إليه، كذلك يستدعى اسم "القدوس" نظافة تلك المخلوقات وطهاراتها حتى عدّ الحديث الشريف "النظافة من الإيمان" الطهور نورًا من أنواره لارتباطه القدسي هذا، وأظهرت الآية الكريمة أن الطُهر مدعاة إلى المحبة الإلهية ومدارا لها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

---

(١) اللمعات ٥١٨-٥١٩.

تتوقف النظرة البيئية على نقطة مهمة أخرى، هي وجود النظام البيئي الحساس للغاية في الكائنات، أن ما توصل إليه علم الفيزياء والحياة المعاصرة هو وجود نظام حيوي في الكون. وترتب على هذا التقدم العلمي أن نظرية العالم الميكانيكي تركت محلها لنظرية العالم العضوي، وتركت الفيزياء الكلاسيكية محلها للفيزياء الحديثة.[1] ولا شك أن فلسفة البيئة مدينة وجودها إلى هذه التطورات العلمية الجديدة. أن منظور النظام الكوني الحيوي جلب معه عضوية الإنسان في هذا النظام. وفقدت بذلك الفلسفة الكارتيزية أهم دعائمها القائمة على ثنائية البدن- والروح. والسؤال هنا: ما هي البراديغما "مجموعة المعضلات والحلول المطروحة لها" الجديدة التي ينبغي أن تحل محل المنظور الميكانيكي أو المادي لتفسير العلاقة بين الإنسان والكائنات؟

إن السنوات العشرين الأخيرة تشهد نقاشات جامية في هذا الشأن، لا تسعها هذه الصفحات، مؤداها كلية الكائنات أو تكاملها، وخضوعها لتوازن حساس. وهذه تقترب من منظور سعيد النورسي الذي يرجعها بدوره إلى الخلق الإلهي.

إن سعيد النورسي إذ ينبه إلى النظام والميزان والتوازن في الكائنات، فهو يستند إلى آيات القرآن الكريم. فمثلًا: يستند إلى الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الحجر ليرجع النظام والتوازن والتواؤم والتعادل في البيئة " بعبارة أخرى: العلاقات المتشابكة بين الموجودات ببعضها" إلى اسم "العدل" و"القدير" من أسماء الله الحسنى.

"فإن شئت فأنعم النظر، في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم إلى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات إلى التناسب والانسجام بين أجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريفها إلى موارد المياه

---

(١)اللمعات: ٥٢٢ ومشهور مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالنظافة. وليس من قبيل الصدفة إن كتب الفقه والسنن كافة تبدأ بكتاب الطهارة. وانظر للآيات والاحاديث المتعلقة بالنظافة

الجوفية وصرفياتها، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها إلى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم إلى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام إلى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى أن الكل: يوزن ويُقدر بميزان خارق الحساسية، وأن الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقلُ الإنسان أن يرى إسرافًا حقيقيًا في مكان وعبثًا في جزء.. بل يلمس علمُ الإنسان ويشاهد أكمل نظام وأتقنه في كل شيء فيحاول أن يُريه، ويرى أروع توازن وإبداعه في كل موجود فيسعى لإبرازه.

فما العلوم التي توصَّل إليها الإنسان إلاّ ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع".(١).

إذن، الكائنات "تدبر وتربى بميزان خالق عدل حكيم واحد وقانونه ونظامه يدبر عموم الأشياء بيسر كالشيء الواحد".(٢) والنظام والميزان فيها من تجليات اسم "العدل" و "القدير" وحتى فروع العلم، ومنها علم البيئة والحياة، تنبثق منها. فكما تقول شكران واحدة عن سعيد النورسي: مصدر التوافق بين العلم والإسلام هو القرآن الكريم. فالقرآن- في نظر النورسي- هو ترجمان كتاب

---

(١) Duralı, s. ١٥٤. وانظر من اجل مفهوم الفيزياء الحديثة ونتائجه:

Fritjof Capra., The Turning Point, "London: Bantam Books, ١٩٨٢". s. ٧٥-٩٩; Werner Heisenberg, "The Development of Philosophical Ideas Since desscartes in Comparison with the New Situation in Quantum Theory," The revolution in Modern Science "New York: Harper and Row, ١٩٥٨" icinde; Callicott, "Intrincsic Value, Quantum Theory and Environmental Ethics," Environmental Ethics, ٧, ١٩٨٥, s. ٢٥٧ - ٧٥; L. J., Beck, The Metaphysics of Descartes. A Study of meditations, "Oxford: ١٩٦٥"; Dr. İbrahim Ozdemir, The Ethical dimention of Human Attitudes Towards Nature, "Ankara: The ministry of Environment, ١٩٧٧", s. ٥٢

(٢) اللمعات: ٥٢٤

الكائنات. فتكون المبادئ التي يضعها لتنظيم الحياة، مطابقة للقوانين النافذة في الكائنات "يعنى الشريعة الفطرية الإلهية" وموافقة لها. والقرآن – لهذا السبب– هو المصدر الوحيد لتقدم البشرية".[1]

ثم يزيد النورسي على ذلك، أن يستخرج الإنسان من الكائنات دروسًا في النظام والغائية والاقتصاد والتوازن والانسجام في حياته الفردية والاجتماعية.

"أيها الإنسان المسرف الظالم الوسخ.!

اعلم، أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون، ودساتير شاملة تدور رحى الموجودات عليها لا يلفت منها شيء إلاّ أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها.

فعلامَ تستند وتثير غضب الموجودات كلها عليك فتقترب الظلم والإسلام ولا تكثرت للموازنة والنظافة؟

نعم،إن الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجل أعظم لاسم "الحكيم" إنما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الإسراف، بل تأمر بالاقتصاد.

وأن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل.

وإن ذكر الميزان أربع مرات في "سورة الرحمن" إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في

---

(١)ويرى سعيد النورسي " إن الذي لا يعتقد أن أعمال الجن والإنس يوم الحشر الأكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعدها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكّن أن يتأمل فيما هو ظاهر مشاهد من أنواع الموازنة الكبرى أمامه في هذه الدنيا لزال استبعاده واستنكاره حتماً". اللمعات:٥٢٥.

٦٠ Sukran Vahide, Risale-I Nurdaki Kainat Tasviri,Newtoncu Mekanik Kainat ModellerineBenzemez, Yeni Dergi ٤،١٩٩٤ S.١٧

الكون. وذلك في قوله تعالى﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

نعم، فكما لا إسراف في شيء، فلا ظلم كذلك ظلمًا حقيقيًا في شيء، ولا بخس في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسم "القدوس" يعرض الموجودات بأبهى صورتها وأبدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحًا أصيلًا في شيء ما لم تمسّه يد البشر الوسخة".[1]

فلا ينبغي للإنسان أن يحيا مبذرًا ومسرفًا في كائنات قوامها الاقتصاد والبعد عن الإسراف بل إن يقم حياة متوازنة وذات معنى على النظام والترتيب والميزان السائد في الكون كله بجلوات الله اسم الله "القدير" و"العدل". والسبب الدافع لسعيد النورسي للإصرار على تجليات الأسماء الحسنى هو بيان التوافق بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور. هذه السمة لاحقًا أهم ميزان رسائل النور كما يقول النورسي:" أن يكسب المرء حضورًا وسكينة بالإيمان التحقيقي وباللمعات الواردة عن التفكر الإيماني في المخلوقات.

وهذا التأمل يسوق صاحبه إلى معرفة الخالق سبحانه، فتنسكب الطمأنينة والسكينة في القلب. حقًا أن تلمح هذا النوع من التأمل في فكر الإنسان يجعله يفكر دائمًا في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، أي أنه حاضر وناظر إليه دائمًا. فلا يلتفت عندئذ إلى غيره، ولا يستمد من سواه. حيث إن النظر والالتفات إلى ما سواه يخل بأدب الحضور وسكينة القلب. وبهذا ينجو الإنسان من الرياء ويتخلص منه، فيظفر بالإخلاص بإذن الله".[2]

هذه الميزة التي تجعل من التفكر الإيماني في كل شيء حولنا قائدًا إلى معرفة الله، والتي تهدى إلى حضور المراقبة الإلهية في كل آن وحين، لتضفى

---

(١) اللمعات: ٥٢٤-٥٢٥

(٢) اللمعات: ٢٤٧

شكلًا على حركات الإنسان وسكناته. فالله تعالى هو مصدر كل جمال ولطف كمال. " لأنه من القرر: أن ما في المصنوع من فيض الكمال، مقتبس من ظل تجلى كمال صانعه. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية حتمًا من عموم ما في الكائنات من الحسن والكمال والجلال. [1]

النتيجة:

يقيم سعيد النورسي فلسفة البيئة على أساس قرآني. فالكائنات في نظره مخلوقه على نظام وتوازن وقياس وجمال وتناسب ليكون دليلًا يرشد إلى صانعه. ويشير إلى البعد الكوني والميتافيزيقي في القرآن.

ومن منظوره:

-ليس المقصود من خلق الكائنات المحورة الإنسانية لوحدها، فهي قبل كل شيء دليل يدل على الله الخالق وكتاب منظور. وله بذلك بعد يتجاوز حدود الإنسان.

-ثم المقصود من خلق ذوى الحياة في الكائنات ينبغي أن يفهمه الإنسان ويعمل بالتوافق معه.

-على الإنسان أن يمتنع عن الإسراف توافقًا مع الكائنات التي لا إسراف ولا تبذير فيها يعتني الإنسان بالمعادلات والتوازنات والنظم البيئية التي خلقها الله تعالى في الكائنات.

-سوف يجازى الإنسان في الآخرة ما عمل، ومن جملة ذلك تصرفه في الكائنات وموجوداتها.

-لابد من معرفة الخالق وعبادته والالتزام بأوامره ونواهيه، من أجل حياة إنسانية يسودها السلام والأمان والرفاه والسعادة أما الإنكار فيؤدى إلى الإخلال

---

(١) صيقل الإسلام – محاكمات:١٣٣ .

بالنظام الإلهي في الطبيعة ومن ثم إلى الشقاء، ويذيق روح الإنسان عذابًا كعذاب جهنم حتى في هذه الدنيا.

لقد تحدى سعيد النورسي النظريات الميكانيكية والمادية "والعصرانية" التي سادت منذ القرن الثامن عشر وعارضت الأديان كلها. أن المنظور الذي أوجزناه آنفًا يكتسب أهمية خاصة في فلسفة البيئة واضفاء معنى جدير على البيئة. هذا المنظور مهم جدًا في تكوين فلسفة بيئية إسلامية وأخلاقيتها. ولاشك من وجود تقارب بينه وبين دهاة الموروثات الإسلامية مثل الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي وابن عربي، لكن مفكرنا النورسي- كما يكرر كثيرًا- يعتمد على المحور القرآني. فهو يفسر المفاهيم الشائعة في الوسط التصوفي تفسيرًا جديدًا في سياق قرآني.

خلاصة القول: إن سعيد النورسي يوضح معنى الكائنات والإنسان وموقعه فيها. ويحدد أهم وظيفة للإنسان ومقصود حياته أن يعيش حياة ذات معنى ومغزى بتدقيق كتاب الكائنات المنظور المفعم بالحكم وفى ضوء الكتاب القرآني المسطور، لا أن يعيش حياة غرائزية يغير نوازع أخلاقية. إن معنى الحياة الحقيقية هي في إضفاء المعاني والمبادئ المستلهمة من الكتاب المنظور والمسطور، مع التأكيد على البعد الإنساني فيها. ويعنى ذلك، أن نعيش في وئام وانسجام مع العالم وذوى الحياة، وأن لا ننسى سنجازى على كل عمل نقوم به خيرًا أو شرًا.

حوار مـــع

الدكتور إبراهيـم أوزدمــير
حـــول
(أخلاقيات التعامل مع البيئة)

أجرى الحوار آيفر بالابان

لازلنا نعانى جميعًا من مسألة الاحتباس الحراري وتأثيراتها، ومن ثم عادت المشكلات البيئية لتحتل مكانها داخل مصفوفة قضايانا واهتماماتنا. فعن البيئة، ومشكلاتها، وحماية البيئة بمستوييها البسيط والمُرَكّب أجرينا الحوار مع الدكتور إبراهيم أُوزدمير. ومعروف أن سيادته أول أكاديمي مسلم يُعِد رسالته للدكتوراة في موضوع فلسفة البيئة وأخلاقياتها.

وقد قام بإلقاء العديد من المحاضرات في عدد من الجامعات العالمية حول علاقة البيئة بالدين، والبيئة بالأخلاق. وله العديد من الدراسات والأبحاث في هذا المجال.

بداية – وقبل أى شئ - ما هى البيئة؟

عندما نتحدث عن البيئة فإن كلًا منًّا يدرك تصورات مختلفة حسب رؤيته الخاصة. فالبيئة بالنسبة لأكاديمي لا يؤمن بالمعتقدات الغيبية تتشكل من عالم الطبيعة، والأرض والسماء وما تحويانه من سائر الكائنات الحية، وكل الأماكن التي نعيش على ظهرها. واتسع ذلك المفهوم الآن ليشمل الناس الذين نعيش معهم، والأحياء السكنية، والمجتمعات، وهو ما عُرف بالبيئة الاجتماعية. وتعرفون أنه قد ظهر خطاب في دنيا العولمة يقول:" نحن نمتلك عَالَمًا واحدًا". هذا الخطاب يمثل رؤية من شأنها إلغاء الحدود داخل مفهوم البيئة؛ ذلك أن المشكلات البيئية لا تخص فقط من يعيشون على الأرض التي ظهرت بها تلك المشكلات. فثمة مشكلات للبيئة المحلية، وأخرى للبيئة العالمية. فعلى سبيل المثال؛ لقد تأثرنا، ولا زلنا نتأثر بشكل مباشر- مثل كافة الكائنات الحية الأخرى- من ثقب طبقة الأوزون، وذوبان الجليد، والاحتباس الحراري.

لقد نظر الإمام أبو حامد الغزالي قديمًا إلى الطبيعة من كافة أبعادها الميتافيزيقية. وأدرك البيئة باعتبارها كل شيء يسبح الله ويذكره بدء من الذرة وحتى النظام الشمسي. وعند النظر إلى مولانا جلال الدين الرومي الذي جاء

بعده نجده أيضًا يتحدث عن رقص الذرات والموسيقى الإلهية. فكل الأصوات الموجودة بالطبيعة بالنسبة له تتحول إلى موسيقى. وقد نجح سوسان اليكسجسندر، وديفسد ديمير الخبيران في التلحين والموسيقى وتصميم الأصوات في صف الحركة الموجودة داخل أشرطة الحامض النووي في نوتة موسيقية، وأخرجا لنا موسيقى مدهشة رائعة. ولمولانا جلال الدين الرومي بيت رائع في هذا الصدد يقول فيه:

"الموسيقى ليل ونهار....

صوت ناي ساكن وآخر وضاء...

وإذا ما انتهت الموسيقى انتهت الحياة.."

وكما نرى فقد تم التعبير عن جوهر الحياة بالموسيقى. إذا انتهت بها الحياة. وعند النظر من الناحية البيئية إلى هذا المعنى نجد دلالة مدهشة.

أطلق لخيالك العنان وفكر في أن هناك موسيقى داخل أشرطة الحامض النووي في جسمك مثل تلك الموسيقى الموجودة في العالم الذي حولك. ستشعر عندئذ بتناغم وجمال وتكامل... فمولانا جلال الدين الرومي يقول: إن كل شئ يحمل في جوهره عشق إلهي، كما يحمل بداخله أيضًا موسيقى إلهية. وهذا تصور بيئي مختلف للغاية يؤثر في علاقة الإنسان بالبيئة.

أي أننا إزاء مفهوم بيئي يفيد ضمنًا بأن كل جزء في هذا العالَم الذي يحيط بنا يحمل مكانة وحياة ومغزى خاص، ونحن جزء من هذا العالَم وقد حُملنا مسئولية هذا العالَم.

هذا يمثل رؤية ومفهومًا شموليًّا للبيئة

إننا إذا ما قرئنا القرآن الكريم برؤية بيئية فإننا سنجد أن القرآن الكريم هو أكثر الكتب السماوية المقدسة التي أولت البيئة اهتمامًا وعناية.

ولست أنا وحدي الذي توصل إلى هذه القناعة باعتباري أكاديمي مسلم. فهناك أكاديميون متخصصون في مجال البيئة يتمتعون بشهرة عالية قد توصلوا أيضًا إلى هذه القناعة. ومن هؤلاء البروفيسور ريتشارد فولتز ويعمل حاليا أستاذًا جامعيًا بكندا، وله كتابٌ بعنوان "حقوق الحيوان في الإسلام" وهذا الكتاب هو أول كتاب ينشر باللغة الإنجليزية في بابه. وقد توصل الباحث إلى نتيجة مفادها: "أن القرآن الكريم هو أفضل الكتب التي أولت البيئة والحيوان مكانة وعناية بالغة". غير أنه – ومع الأسف- فالمسلمون في غفلة من هذا.

لقد طلب القرآن الكريم من الإنسان في أول آية نزلت من آياته﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ – ٣]

وهذه الآية ليست دعوى لقراءة نص أو كتاب مكتوب، وإنما هى دعوة لقراءة ما وراء ذلك بكثير. فقد كان العرب قبل الإسلام يرون العالم- وفق تصوراتهم- عالَمًا جامدًا بلا روح ولا معنى. فإذا بهم بهذه القراءة الجديدة يدركون عديدًا من المعانى الجديدة.

والآيات التي نزلت في العهد المكي تكتظ بالنماذج التي تبرز وفرة التغيرات الجذرية التي أحدثها القرآن الكريم في مفهوم العالَم. إننا عندما نعالج مفهومي "الرب" و "الأكرم" التي وردت في أول آية نزلت من آيات القرآن الكريم من خلال نظرة بيئية سيبتدى لنا أن هذين المفهومين كلمتان مفتاحيتان فهما يعنيان أن هناك مالك لهذا الكون الذي نعيش فيه، وأنه هو المتفضل بالكرم على من يعيشون فيه. أى أن كل الكائنات الموجودة حولنا، والمخلوقات الموجودة في الطبيعة، وكل شئ نستخدمه فيها هو نعمة وفضل من الله تعالى حسب تعبير القرآن الكريم. هى نعمة تفضل بها علينا مالك ذلك الكون، وقدمها إلينا إكرامًا منه. وعند النظر من هذه الزاوية سنرى أن المطر بلغة القرآن رحمة، وأن الماء

أساس الحياة، ومن أعظم النعم. كما أن الحدائق والبساتين وما حولنا من حيوانات كل ذلك يمثل نماذج مجردة على رحمة الله بنا.

فالسحب مسخرة ولذا يأمرنا الله تعالى بالتفكر والتدبر دومًا في مرور السحاب، وفي الجبال الرواسي الشامخات، وفي دوران النجوم والأفلاك الجوار المنشآت في البحر كالأعلام، وفي خلق الحيوانات.وحتى يتسنى لنا إدراك ذلك ينبغي علينا أن نقرأ تلك الأشياء على النحو الذي أرشدنا إليه القرآن الكريم.

إن الإنسان المتدين يقرأ فاتحة الكتاب نحو أربعين مرة في اليوم والليلة ومن ثم ينبغي عليه أن يتوقف عند قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويشكر الله تعالى. وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وهو ما يعنى أن الله محيط بكل شئ. وعند النظر من هذه الزاوية يتضح لنا أن الله تعالى محيط بالبيئة كلها أى أننا نعيش في بيئة معنوية. وفى هذا معان كثيرة مهمة من الناحية النفسية. أولها: لسنا وحدنا في هذا الكون.وأن الكون، وهذه المخلوقات التي حولنا ليست جامدة صماء، ولم تخلق عبثًا من قبيل المصادفة، وإننا لنرى أن نظرية النشوء لدارون قد فقدت جاذبيتها القديمة.

فقد أدلى العام الماضي البروفيسور أنطوني رقليوو هو من أكبر وأعظم الفلاسفة الملحدين في العالَم اليوم بتصريح أعلن فيه أمام العالَم بعد أبحاثه التي أجراها حول شريط الحامض النووي DNA أن نظرية النشوء لم تعد قادرة على تفسير الكون، وأنه لهذا يعتقد بأنه قد يكون هناك إله قد خلق الكون. وهذه النتيجة التي توصل إليها ذلك العالِم تعد مهمة بسبب أنه أدركه بعد بحث وتمحيص لذلك الكون الهائل.

وهى أيضًا تحمل أهمية من الناحية البيئية.

لقد خلق كل شيء في بيئتنا من أجل نظام ومعيار وجمال ومغزى محدد. إن الآيات الأولى من سورة الرحمن تعرض لنا لوحة كونية فريدة. وسورة الرحمن في الأساس تلخص لنا وحدها وبشكل رائع مفهوم الكون في القرآن الكريم. فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ١ – ٧] ولأن الإنسان يعتمد على المعيار والميزان أساسًا للكون فقد حذره الله تعالى قائلًا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨ – ٩].

والسورة بعد ذلك أيضًا تؤكد على أن الكون، ومن فيه لم يخلق من أجل الإنسان وحده؛ بل من أجل الكائنات جميعها. وأكد أيضًا الله تعالى على نعمه التي أسبغها على عباده فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٠ – ١٢]

ثم يكرر الله تعالى تحذيره للإنسان بقوله ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وعند تقييم هذه النعم والتحذيرات كلها من خلال رؤية بيئية نجدها أكثر وضوحًا في كلمات الشاعر الإسلامى محمد عاكف "إن جَوهر مفهوم البيئة في قلب القرآن".

ويقول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ولقد اطلعت على عدد من التفسيرات لهذه الآية بدءًا من تفسير الزمخشري حتى تفسير (المالي حمدي ياظير). وأرى أن تفسير المالي حمدي ياظير حول الآية يلقى الكثير من القبول.

ويمكننا فهم هذه الآية حسب تفسير (المالي) على نحوين. الأول: أن كل شيء يسبح الله تعالى بلسان حاله أى بلسان بدنه. وأما الآخر: أن كل الكائنات

تسبح الله تعالى بلسانها ولكننا لا نفقه ذلك. ويرجح (المالي) الرأي الأخير.ويقول:" إن كل شئ من طير وحشرات ورياح يسبح الله تعالى ولكن لا طاقة لنا الآن بفهم ذلك".

ويشير القرآن الكريم إشارات أخرى في هذا الصدد حيث يقول الله تعالى بشأن سيدنا داود عليه السلام ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] وكذلك كان سيدنا سليمان عليه السلام يسمع حديث النحل أى أن لكل شئ لغة وحوار وأن ثمة منطق للاتصال بينهم على حد تعبير (المالى). غير أننا لا يمكننا فهم ذلك حتى الآن. ولعل البشرية في يوم من الأيام، بعد جهد ودراسة، تتمكن من فهم تلك اللغة.

-إن ما تقول ذكرني بأبيات شعر سمعتها من أستاذنا الشيخ محمد خطيب أوغلو وقد أثرت في كثيرًا: "وإنْ من عشب نبت في الأرض إلا ويهلِلَ وحده لا شريك له". فهذه النظرية تضع معيارًا لعلاقتنا مع البيئة.

كما أن هذه الأقوال تعبر عن رؤية قرآنية للكون، ولمنظومة القيم، فإنها أيضا توضح أن الله محيط بكل شيء، ورحيم بعباده. ولنذهب إلى الشاعر الصوفى يونس أمره نجده يقول:" أحب الخالق ومخلوقاته كلها". لماذا؟ لأن خالقنا واحد، ونعيش في دنيا واحدة، ونتنفس هواء واحدًا، ونستمتع بدفء شمس واحدة. اذهب إلى حيث أردت ستجد أن كل ماء صالح للشرب له نفس الخواص الأساسية. إننا نعيش في عالَم قد أُعدَّ من أجلنا ورب هذا العالَم هو الله.

وفى الآية ١٦٤ من سورة البقرة يطلب الله تعالى من أولئك الذين يطلبون المعجزة من الأنبياء حتى يؤمنوا بهم أن يتفكروا في معجزات الله تعالى في خلق السماوات والأرض. كأن يتفكروا في النجوم و الشمس والقمر والفلك

التي تجرى في البحر والطير والحيوان، وأن في كل هذه الأشياء آيات، وإشارات على وجود الخالق تعالى. فتطلب منهم الآية التفكر في خلق الله تعالى، وقراءة مخلوقاته بشكل مختلف. نحن نعيش في عالَم مفعم بالمعجزات.

نحن نعيش في زمن انكشفت فيه وحدات بناء شريط الحامض النووي، وزدات فيه معارفنا المتعلقة بالكون الذي نعيش فيه على نحو لم ير في تاريخ البشرية من قبل. عندما ننظر إلى كل هذه الخبرات والتراكمات المعرفية من حيث "خالق الكون ومالكه ومعجزه الله تعالى في بقاء ذلك النظام وضوابطه وجماله وروعته "سيكون من الممكن فهم تلك المعجزات على نحو أفضل.

-أي أنه ينبغي على الإنسان أن يتوجه بعقله وقلبه ووجهه نحو الطبيعة وأن يقرأ كتاب الكائنات مباشرة.

هناك بُعد لعادتنا وتقاليدنا قد نسيناه أو أهملناه في هذا الصدد وأعتقد أن ذلك البعد قد تعرض للإهمال متأثرًا بالأحداث السياسية والاجتماعية التي وقعت في القرون الأخيرة. قد يكون أحد أهم هذه الأسباب هو وقوع الدول الإسلامية تحت الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

فقد فُهم القرآن باعتباره نصًّا يدعو إلى التحرر من الاستعمار؛ حيث انشغلت المجتمعات المسلمة بحروبها من أجل تحرير أوطانها، والحصول على استقلالها. وحربنا من أجل التحرير تعد من أروع النماذج على ذلك. انظر إلى أسطورة (جاناق قلعه) وانظر إلى نشيد الاستقلال. بل وانظر أيضًا إلى أغنية (صقاريا) لنجيب فاضل. يمكنك أن تدرك ذلك البعد النضالي التحرري في كل هؤلاء. وإن تناول ذلك المفهوم في سياقه التاريخي يعد أمرًا طبيعيًّا، بل واجبًا.

أضف إلى ذلك أن هناك حضارة شكلها القرآن الكريم. وهناك علاقة بين الإنسان والطبيعة قد شكلتها هذه الحضارة. فما هو مفهوم الطبيعة عندما ننظر

إليها في إطار الحضارة الإسلامية، وما هو مفهوم البيئة؟ وما هى مكانة الإنسان في الطبيعة؟ وما هى علاقات الإنسان بالطبيعة؟ ينبغي علينا أن نمعن النظر بدقة في كل هذه الأسئلة؟ وأن نجد لها أجوبة. إن أجوبة الإسلام عن هذه الأسئلة تضفى تمايزًا للحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى، وتصبغها بطبيعة وسمات خاصة.

وأعتقد أننا عندما ننظر إلى أجوبة الإسلام عن هذه الأسئلة سيسهل علينا فهم نقاط تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات أو مجالات تأثرها بالحضارات الأخرى.

ويلخص الشاعر (لبيد) وهو من أوائل الشعراء في الإسلام فهم القرآن للكون في بيتين:

أمعن النظر في سطور الكائنات فهي رسائل إليك من الملأ الأعلى

وأترك إلى تقدير القراء إدراك مدى القيمة البيئية التي تحملها رؤية الإنسان إلى كافة الكائنات والمخلوقات حولنا باعتبارها رسائل علوية من الله تعالى. لأننا نحتفظ ونعتني عناية بالغة بما يرسله أحباؤنا إلينا من رسائل أو أشياء. فنهتم بالقيمة المعنوية للأشياء أكثر من قيمتها المادية.

بل لعلنا أيضا نحتفظ بهذه الرسائل طيلة عمرنا. ومن ثم ينبغي علينا أن ننظر إلى الكائنات حولنا في ظل هذه العلاقة، وأن نسعى لإدراك المعانى والقيم المعنوية التي وفرتها لنا تلك الكائنات فضلًا عن فوائدها ومنافعها لنا، وأن نحاول تلمس البعد الإلهي بها. أى أن نسعى لفهم (البيئة العميقة) على حد تعبير العالِم البيئي والمفكر النرويجي آرني نايس. وبهذه الكيفية يمكن استثارة الوعي البيئي وتقويته.

ولهذا السبب، ينبغي علينا أن ندرس سيرة النبى ﷺ من هذه الزاوية؛ فهي تعد أول الأمثلة وأروعها على فهم القرآن للكون، وأن تتم تلك الدراسة

في إطار العلاقات بين (الله- الكون- الإنسان). وأعتقد أن تأكيد النبي ﷺ بشدة على هذا البعد في أوامره وتعاليمه، وكذلك تطبيقه العملي له سيسهم إسهامًا بالغًا في تطوير الوعي البيئي في مجتمعنا. ولا يمكنني أن أدعى أن هذه الدراسة كافية في موضوع أوامر النبي ﷺ بهذا الصدد. فالنبي ﷺ نبي الرحمة والشفقة. وقد وبخ النبي ﷺ صحابيًّا مجاهدًا أفسد على طائرٍ عشه، وأمره بأن يرد الأفراخ الصغيرة إلى عشها. وأكد له أنه لن تقبل له عبادة ما لم يرد الأفراخ إلى عشها. وكما ترون فهذه نظرة شمولية، ونظرة عالمية تقوم على الحب والرحمة و الشفقة.

ما هى المرتكزات الأساسية لأخلاقيات الإسلام في التعامل مع البيئة؟

إن التوحيد هو الركيزة الأولى بين الركائز الأساسية لأخلاقيات الإسلام في التعامل مع البيئة. فقد كان الله تعالى ثم خلق الكون. ولم يكن هذا الخلق مصادفة. فقد خُلق كل شئ بقدر وحكمة. ثم خلقنا الله تعالى، وأصبحنا جزءً من الكون.

وحمل الإنسان الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها.

وأورثنا النبى ﷺ مسئوليات العبودية. وأصبحنا مسئولين عن كل شيء نفعله في هذه الدنيا. والأكثر من ذلك أننا سنُسأل يوم القيامة عما فعلنا، وعما لم نفعل؛ حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. وانطلاقًا من هذه الدقة والوضوح الذي نصت عليه الآية الكريمة ينبغي علينا توخي الدقة والحرص في كل ما نفعل.

فعلى سبيل المثال، عندما تخرج للتنزه والسير صباحًا ستجد أن المكان الذي تسير فيه قد دبت فيه الحياة من جديد مع حلول الربيع. وسترى أمامك

النباتات والهوام والحشرات والحيوانات. فينبغي علينا أن نمعن النظر، ونتأمل كل هذه المخلوقات حتى ندرك المنظومة البيئية التي نعيش فيها. ويمكننا أن نرى في الطبيعة كيف أن ذلك الشيء الذي نسميه الحياة مرتبطة ببعضه ارتباطًا هائلًا. ومن ثم يكون علينا النظر إلى هذه الكائنات نظرة المتأمل المعتبر.

افتح عينيك، وانظر إلى الطبيعة المتدفقة بالحيوية من حولك. وافتح أذنيك إلى صوت الطبيعة، واستمع إلى أنغام الطبيعة، وألحانها العميقة. واقترب بأنفك من الأرض، وتشم رائحة الزهور المنبعثة منها وتحسس بيدك الأرض والأحجار والمياه. وتذكر أنك من التراب خلقت وإليه ستعود. وكرر بين نفسك بيت (عاشق ويسل): "إنها الأرض السوداء، حبيبي الوفي الصدوق".

لا أقول أنني والمسلمون أمثال فقط هم الذين يعتقدون بذلك؛ فأشهر علماء البيئة في العالم يقولون بالفكرة ذاتها. ولهذا السبب ستكون علاقتنا بالبيئة الحية حولنا أكثر حيوية وتلونًا ومعنى. أى أننا لن يمكننا الحياة في ذلك الكون دون جدوى أو هدف محدد واضح ومن ثم كانت كل حركة من حركاتنا وخطوة من خطواتنا ذات مغزى ودلالة.

إن ثقافتنا تشتمل في الأساس على هذه الشفقة والرقة. فأمهاتنا تعلم أطفالها ألا يؤذوا النمل، ولا يفسدوا على الطيور أعشاشها. وليس هذا فحسب. بل تدعوهم إلى تجنب أذى الآخرين. ورغم أن لهذه التعليمات والأوامر ترجماتها المباشرة في النصوص الدينية، فهي وبلا شك لها مكانتها في تصور القرآن للدنيا.

إن في خلق النحلة حكمة، ومن ورائه هدف. وللإمام الغزالي كتاب حول حكمة خلق الكائنات. كما أن هناك كتب أخرى للعلماء المسلمين حول الحيوانات المختلفة. فعلى سبيل المثال، هناك كتاب عجيب للدميرل بعنوان (كتاب الحيوان).

كما أن للجاحظ أيضًا كتاب آخر في هذا الموضوع. وقد ذخرت العهود الأولى من الحضارة الإسلامية بمصادر كثيرة في هذا الموضوع. غير أننا بعد تلك العهود أهملنا كما قلتُ أن يكون لنا خطاب في الموضوعات المعنية بالبيئة والكون.

أما النقطة الثانية التي أود التأكيد عليها في هذا الإطار هى الاعتقاد بأننا مسئولين عن كل شيء نفعله، والتحرك انطلاقًا من الوعي الذي شكله ذلك الاعتقاد. وعندئذ فإنك لن تستطيع أن تقطف زهرة، ولن تترك نفسك أو كلبك جائعًا، ولن تهمل الزهور وتدعها تموت عطشًا. إنك لن تستطيع أن تؤذي حيوانًا، ولن تلقي بعلبة العصير الفارغة أو ورقة الشيكولاتة التي أكلتها من نافذة سيارتك.

كما أنك لن تلقى مخلفات مصنعك دون تنقية في البحار والمحيطات والأنهار. إن شعورك بالمسئولية لن يسمح لك بالقيام بذلك. إن هذا هو الاستسلام والخضوع لله تعالى من خلال هذه السلوكيات. إنك لن تكون مسلمًا حقيقيًا بالصلاة والصوم والزكاة والحج فقط. وكما قال الشاعر المشهور خليل جبران " إن الدين يُطَوِّق ساعات الحياة كلها".

كيف تؤثر رؤية الإنسان نفسه سيدًا للأرض ومهيمنًا عليها في علاقته بالطبيعة؟ وهل الإنسان هو سيد الأرض والمهيمن عليها أم الإنسان مستأمن عليها وعلى ما فيها، وبهذا الشكل يكون مسئولًا عن تأدية هذه الأمانة بحقها؟

إن ما ذكرته في الحقيقة أمر بالغ الأهمية. إن رؤية الإنسان نفسه سيدًا للأرض ومهيمنًا عليها مسألة تعرضت للنقد من قِبَل كل الفلاسفة والحركات البيئية المعنية بفكرة البيئة. ظهر بعد الثورات العلمية في القرن السابع عشر مفهوم لدى بعض العلماء وخاصة لدى فرانسيس باكون مفاده:" إلجام الطبيعة وتقييدها، والسيطرة عليها، ونزع مخالبها، والهيمنة عليها".

وبتأثير الفكر الواقعي المتنامي منذ القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن العشرين أثمر ذلك المفهوم عن مفهوم آخر يدعو إلى إهمال المقدس والتمركز حول الإنسان. وحسب ذلك المفهوم فإن الإنسان سيتمدن ويتقدم بقدر ما يسيطر على الطبيعة ويهيمن عليها. غير أنه قد تبين مع ظهور المشكلات البيئية أن: الإنسان ليس سيد الطبيعة والمهيمن عليها، بل هو جزء منها. وأن ما يفعله الإنسان في الطبيعة سيعود إليه وينقلب عليه. فعندما يتلوث الهواء فإنه سيختلط بالماء على هيئة أمطار. وعندما يشرب الإنسان ذلك الماء الملوث الذي فقد صفائه ونقائه الطبيعي يصاب بالأمراض المختلفة والتي قد يكون بعضها مزمنًا.

بدأ الإنسان منذ ستينيات القرن العشرين يدرك أنه جزء من الطبيعة. فقد قال (ساتل) رئيس الهنود الحمر عام ١٨٥٤ لرئيس الولايات المتحدة آنذاك الذي طلب منه أن يبيعه أرض بالمال: (كيف يمكن للإنسان أن يبيع أو يشتري صفحة السماء أو حرارة الأرض؟ إن إدراك هذه المسألة بالنسبة لنا أمر بالغ الأهمية. إن كل شبر من هذه الأرض يمثل مقدسًا لشعبي. إن أفرع أشجار الصنوبر المتلألأة، والحشرات الطنانة،والشواطئ ذات الرمال البيضاء، والغابات الكثيفة، والضباب الذي يكسو الجداول في الصباح، لهى جزء لا يتجزأ من ذكريات شعبي وتجاربه وخبراته لمئات السنين. إن الماء الذي يجرى في شرايين أشجار الغابات ليحمل ذكرى أجدادنا. هذه هى عقيدتنا. غير الأمر يختلف بالنسبة للرجل الأبيض، فما أن يموت إنسان أبيض ويرحل إلى عالَم النجوم ينسى أرضه التي وُلد فيها. أما موتانا فلا ينسون الأرض التي وُلدوا بها. لأن الهندي الأحمر يعلم أن أمه الحقيقة هى أرضه".

ويمكننا أن نجد مفهومًا مشابهًا لذلك عند مولانا جلال الدين الرومي. فهو أيضًا يقول بأن الطبيعة هى أمُنا غير أننا قد أحرقنا هذه الطبيعة وآلمناها

وخربناها. وإن المشكلات البيئية جميعها لتصرخ في وجوهنا بحقيقة واحدة هى:

"أيها الإنسان إنك لست سيد هذه الطبيعة. إنك جزء ضئيل منها. ما من شئ يحدث داخل الطبيعة إلا وسيرتد عليك".

أعتقد أنه من الممكن أن تتشكل حياة منسجمة مع البيئة من خلال فهم بيئى شامل فقط. وكلنا يعلم مدى أهمية علاقتنا مع جيراننا في ظل الإسلام الاجتماعى والطمأنينة. وعلى الشاكلة ذاتها، توصل علم البيئة إلى أنه من أجل سعادتنا وسعادة ذريتنا ينبغى علينا أن نحيا حياة يعمها السلام مع كافة الكائنات الموجودة في البيئة.

كيف يمكن أن يتشكل هذا المفهوم البيئي الشامل؟

ينبغى في البداية أن تتغير الرؤية المعرفية أى ينبغى أن نغير رؤيتنا لأنفسنا ولعالَم الكائنات من حولنا. وهو ما يمكن أن يتم من خلال التعليم. من أنا؟ وما هو مفهوم الكون الذي أعيش بداخله وأمثل جزء منه؟ ينبغى علينا أن نسأل أنفسنا مجددًا أهم أسئلة في تاريخ الفلسفة. وعلى حد تعبير عالِم البيئة النرويجى ومؤسس حركة علم البيئة العميق البروفيسور (ارنى نايس): "إن ما سيتم فعله هو التفكير مجددًا وبعمق" وحسب ما يرى ذلك العالِم فإن التفكير في ورقة من أوراق الأشجار فقط لجدير بأن يستهلك العمر كله. وسيتضح في نهاية هذا النمط من التفكير أن الورقة ليست شيئًا تافهًا؛ بل لعلها تكون إحدى المعجزات. فكم من المواد يسهم في تكوين هذه الورقة. إن ما علينا فعله هو أن نتدبر في أنفسنا أولًا ثم نطبق ما قرأناه.

ولعله قد حان الوقت لنتذكر قول أبى الفلاسفة سقراط: "إن حياة لا تدبر فيها ليست جديرة بالحياة". ونتيجة هذا التدبر أن تظل متعلمًا طوال عمرك. ولهذا فإن (رادولف باهرو) المفكر المركسى القديم، و الذي شعر بالحاجة إلى

الدين مرة أخرى قبل موته، وهو مفكر بارز في تشكيل الفكرة الخضراء قد قال في إحدى المؤتمرات باستانبول: ما لم نغير رؤيتنا المعرفية كما فعل الأنبياء موسى وعيسى ومحمد فلن يمكننا التغلب على المشكلات البيئية".

وعند النظر إلى رسالات الأنبياء جميعًا نجدها كلها تتفق في جوهرها على مفهوم واحد هو التوحيد وخلق الكون، وأنه مستودع أمانة لدينا.

-أي أن الكون هو عائلتنا الكبرى.

يقول القرآن الكريم أن الكائنات الأخرى كلها أمم أمثالنا. وجميعنا يدرك مفهوم الأمة باعتباره كل المسلمين فقط. غير أن القرآن الكريم أوضح بشكل جلي هذه الحقيقة في الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]

إن المتفضل عليهم وعلينا بالرزق إله واحد،وخالقنا وخالقهم إله واحد، ونعيش معًا في كون وعالَم واحد.

وكما تعرفون فإن مصطلح البيئة هو مصطلح وضعه عالِم البيولوجى الألمانى (إرنست هاينريتش هايكل) في القرن التاسع عشر. أكد على أنه ينبغى علينا أن ندرك ونفهم الدنيا كأنها بيتنا. وانظر إلى فخر الدين الرازى والكشاف والطبرى وستجد أيضًا أن تفسير كل الآيات المكية في سائر التفاسير القديمة الممتدة حتى تفسير المرحوم (المالى) كلها تفسيرات متقاربة تصور الدنيا كأنها بيت. والأكثر من ذلك أنك تراها تصور الكائنات الحية الأخرى باعتبارها أمة مثلنا. وقد تحدث القرآن الكريم وأورد الكثير منها مثل النمل والنحل والعنكبوت. وأمرنا الله تعالى بالتفكر في مخلوقاته والتدبر فيها. كما أكد النبى ﷺ على أن تدبر ساعة يعدل عبادة ألف عام.

وهو ما يعنى أن المحافظة على البيئة ليست ظاهرة جديدة؛ بل هو اسم يعنى إدراك الكون الذي نعيش فيه بشكل جديد ينبغ من جوهر عقيدتنا، مثل أن نفهم الدنيا باعتبارها بيتنا، وأن نعتنى ببيتنا، ونحافظ عليه نظيفًا، ونراعى توازناته، وألا نؤذى بيتنا، وأن نحذر من يضره، بل ونمنعه عند اللزوم.

ثمة مفاهيم مختلفة في هذا الموضوع في الأديان والمعتقدات والفلسفات الأخرى. فنعلم أن في الكونفوشيوسية والبوذية، ولدى الهنود الحمر مفاهيم اهتمت بالبيئة. وفى عدد من جامعات العالَم الرائدة اليوم يتبلور ذلك المفهوم في وضع مقررات بعنوان (البيئة والدين). وفى إطار سعينا لفهم البيئة وحل مشكلاتها تدور النقاشات حول كيف يمكن للأديان أن تسهم في توفير حياة أكثر سلام مع البيئة.

كما يتم التأكيد على إمكانية أن تثرى هذه المفاهيم مفهومنا للإنسان والبيئة.

وخلاصة القول،

إن لدينا عالَم واحد فقط. وقد توصل علم البيئة- آخر ما توصل- إلى أن العالَم كائن حى مثلنا تمامًا. وعليه؛ فهو يتأثر بأنماط حياتنا وبكلما نفعله وبسلوكياتنا الاستهلاكية. ومن أجل ذلك كله أيضًا ينبغى علينا أن نعيد النظر في أنماط حياتنا وأن نعيد تشكيلها على نحو يضمن لها الاستمرارية. ومما لا ريب فيه أننا لن يمكننا الاستمرار والبقاء في ظل نمط حياتنا القائم، وثقافتنا الاستهلاكية الحالية. وهذه الحقيقة حقيقة راسخة في مصفوفة كل النقاشات المعنية بمسألة القابلية للاستدامة. ونجد أنفسنا مضطرين للتذكير مرة أخرى بدعوى سقراط على مر العصور "إن حياة لا تدبر فيها ليست جديرة بالحياة". وهذا هو أوان التدبر في حياتنا أولوياتنا وأنفسنا.

فإن لم يكن الآن فمتى؟

أبعد أن يصبح ذلك الكوكب الوحيد الذي نعيش فوقه خرابًا؟

